

أبو أيوب الأنصاري

يدفن تحت أسوار القسطنطينية

هذا الصحابيُّ الجليلُ يُدعى خالد بن زيد بن كليب ، من بني النجَّار.
أما كُنيتُه فأبو أيوب، وأما نسبُه فيألى الأنصار.

ومن ممَّا معشَرَ المسلمين لا يعرفُ أبا أيوبَ الأنصاري؟!

فقد رَفَعَ اللهُ في الخافقين (1) ذِكْرَه، وأَعْلَى في الأنام (2) قَدْرَه حينَ اختارَ بيته من دون بيوتِ المسلمين جميعاً ليتزلَّ فيه الكريمُ لَمَّا حَلَّ في المدينة مهاجراً، وحسبُه بذلك فخراً.

ولنُزولِ الرسولِ صلواتُ اللهِ عليه في بيتِ أبي أيوبَ قصَّةٌ يحلو تَرْدَادُها ويلدُّ تَكَرُّرُها.

ذلك أن النبيَّ عليه الصلاةُ والسلامُ حينَ بَلَغَ المدينةَ تلقَّتهُ أفدَّةُ أهلها بأكرم ما يُتلقَى به وافداً...
وَتَطَلَّعتْ إليه عيونُهم تُبته شوقَ الحبيبِ إلى حبيبه...

وفتحوا له قلوبهم ليحلَّ منها في السَّويداء...

وأشرعوا (3) له أبوابَ بيوتهم لينزلَ فيها أعزَّ منزل.

لكنَّ الرسولَ صلواتُ اللهِ عليه، قضَى في قُبَاء (4) من ضواحي المدينة أياماً أربعةً، بنى خلالها مسجده الذي هو أولُ مسجدٍ أسس على التقوى.

ثم خرجَ منها راكباً ناقته، فوقفَ ساداتُ يثربَ في طريقها، كلُّ يريدُ أن يظفرَ بِشرفِ نزولِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في بيته...

وكانوا يعترضون الناقةَ سيِّداً إثرَ سيِّدٍ ، ويقولون:

أقم عندنا يا رسولَ الله في العَدَدِ والعَدَدِ والمنعة (5)، فيقولُ لهم:

دعوها فإنها مأمورة.

وتظلُّ الناقةُ تمضي إلى غايتها تتبُّعها العيونُ، وتُحْفُّ بها القلوب...

فإذا جازت متزلاً حزنَ أهله وأصابهم اليأسُ، بينما يُشرقُ الأملُ في نفوسِ من يليهم.

وما زالتِ الناقةُ على حالها هذه، والناسُ يمضون في إثرها، وهم يتلهفون شوقاً لمعرفة السَّعيدِ

المحظوظِ حتَّى بلغتْ ساحةَ خلاءِ أمامِ بيتِ أبي أيوبَ الأنصاري، وبركتَ فيها...

لكنَّ الرسولَ عليه الصلاةُ والسلامُ لم يتزلَّ عنها...

فَمَا لَبِثْتَ أَنْ وَتَبْتَ وَأَنْطَلَقْتَ تَمْشِي، وَالرَّسُولُ مُرْخٌ لَهَا زِمَامَهَا، ثُمَّ مَا لَبِثْتَ أَنْ عَادَتْ أَدْرَاجَ هَا وَبَرَكَتْ فِي مَبْرَكِهَا الْأَوَّلِ.

عِنْدَ ذَلِكَ غَمَرَتْ الْفَرَحَةَ فُوَادَ أَبِي أَيُوبَ الْأَنْصَارِيِّ، وَبَادَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُرْحَبُ بِهِ، وَحَمَلَ مَتَاعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَكَأَنَّمَا يَحْمِلُ كَنُوزَ الدُّنْيَا كُلِّهَا وَمَضَى بِهِ إِلَى بَيْتِهِ.

كَانَ مَتْرُلُ أَبِي أَيُوبَ يَتَأَلَّفُ مِنْ طَبَقَةٍ فَوْقَهَا عُلِّيَّةٌ، فَأَخْلَى الْعُلِّيَّةَ مِنْ مَتَاعِهِ وَمَتَاعِ أَهْلِهِ لِيَتْرَلَ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ...

لَكِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آثَرَ عَلَيْهَا الطَّبَقَةَ السُّفْلَى، فَامْتَثَلَ أَبُو أَيُوبَ لِأَمْرِهِ، وَأَنْزَلَهُ حَيْثُ أَحَبَّ.

وَمَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ، وَأَوَى الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى فِرَاشِهِ، صَعَدَ أَبُو أَيُوبَ وَزَوْجُهُ إِلَى الْعُلِّيَّةِ وَمَا إِنْ أَغْلَقَا عَلَيْهِمَا بَابَهُمَا حَتَّى التَفَّتْ أَبُو أَيُوبَ إِلَى زَوْجَتِهِ وَقَالَ: وَيْحَكَ، مَاذَا صَنَعْنَا؟!؟

أَيُكُونُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْفَلَ، وَنَحْنُ أَعْلَى مِنْهُ؟!؟

أَتَمْشِي فَوْقَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!؟

أَنْصِيرُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْوَحْيِ؟!؟ إِنَّا إِذْنٌ لِهَالِكُونَ.

وَسُقِطَ (6) فِي أَيَدِي الزَّوْجَيْنِ وَهُمَا لَا يَدْرِيَانِ مَا يَفْعَلَانِ.

وَلَمْ تَسْكُنْ نَفْسَاهُمَا بَعْضَ السُّكُونِ إِلَّا حِينَ انْحَازَا إِلَى جَانِبِ الْعُلِّيَّةِ الَّذِي لَا يَقَعُ فَوْقَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالتَزَمَاهُ لَا يَبْرَحَانِهِ إِلَّا مَا شِئِنَ عَلَى الْأَطْرَافِ مُتَبَاعِدِينَ عَنِ الْوَسْطِ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو أَيُوبَ؛ قَالَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: وَاللَّهِ مَا أَغْمَضَ لَنَا جَفْنَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لَا أَنَا وَلَا أُمَّ أَيُوبَ.

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

وَمِمَّ ذَاكَ يَا أَبَا أَيُوبَ؟!؟

قَالَ: ذَكَرْتُ أَبِي عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ أَنْتَ تَحْتَهُ، وَأَبِي إِذَا تَحَرَّكَتْ تُنَاثِرَ عَلَيْكَ الْعُبَارُ فَآذَاكَ، ثُمَّ إِنِّي غَدَوْتُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْوَحْيِ.

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

هُوَ عَلَىكَ يَا أَبَا أَيُوبَ، إِنَّهُ أَرْفَقُ بِنَا أَنْ نَكُونَ فِي السُّفْلِ، لِكَثْرَةِ مَنْ يَعِشَانَا (7) مِنَ النَّاسِ.

قَالَ أَبُو أَيُوبَ:

فَامْتَثَلْتُ لِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَنْ كَانَتْ لَيْلَةٌ بَارِدَةٌ فَانْكَسَرَتْ لَنَا جَرَّةٌ وَأَرِيقٌ

مأوها في العُلْيَةِ، فقامتُ إلى الماءِ أنا وأمُّ أيوبَ، وليسَ لدينا إلا قِطِيفَةٌ كُنَّا نَتَّخِذُهَا لِحَا فَاً، وَجَعَلْنَا
نُنَشِّفُ بِهَا الْمَاءَ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَصِلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
فلما كان الصُّبْحُ غَدوتُ على الرسولِ صلواتُ اللَّهِ عليه، وقلتُ:
بأبي أنتَ وأُمِّي، إني أكرهُ أنْ أكونَ فوقَكَ، وأنْ تكونَ أسفلَ مِنِّي، ثم قصصْتُ عليه خبرَ الجِرَّةِ،
فاستجاب لي، وصعدَ إلى العُلْيَةِ، ونزلتُ أنا وأمُّ أيوبَ إلى السُّفْلِ.

أقام النبيُّ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ في بيتِ أبي أيوبَ نَحْوًا مِنْ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ، حَتَّى تَمَّ بِنَاءُ مَسْجِدِهِ فِي
الْأَرْضِ الْخَلَاءِ الَّتِي بَرَكَتْ فِيهَا النَّاقَةُ، فَانْتَقَلَ إِلَى الْحُجْرَاتِ الَّتِي أُقِيمَتْ حَوْلَ الْمَسْجِدِ لَهُ وَلِأَزْوَاجِهِ،
فَعَدَا جَارًا لِأَبِي أَيُوبَ، أَكْرَمَ بِهِمَا مِنْ مُتَجَاوِرِينَ.

أحبُّ أبو أيوبَ رسولَ اللَّهِ صلواتُ اللَّهِ عليه حبًّا مَلِكٌ عَلَيْهِ قَلْبُهُ وَلَبَّهْ، وَأَحَبُّ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ أبا
أيوبَ حبًّا أزالَ الكُلْفَةَ فيما بينه وبينه، وجعلَه ينظرُ إلى بيتِ أبي أيوبَ كأنه بيته.

حدَّث ابنُ عَبَّاسٍ (8) قال:

خرج أبو بكرٍ رضيَ اللَّهُ عنه بالهاجرةِ (9) إلى المسجدِ فرأه عمرُ رضيَ اللَّهُ عنه، فقال:

يا أبا بكرٍ ما أخرجَكَ هذه الساعةَ؟!

قال: ما أخرجني إلا ما أجدُ من شدَّةِ الجوعِ.

فقال عمر:

وأنا والله ما أخرجني غيرُ ذلك.

فبينما هما كذلك إذ خرجَ عليهما رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ما أخرجكما هذه

الساعةَ؟!

قالا:

والله ما أخرجنا إلا ما نجدُه في بطوننا من شدَّةِ الجوعِ.

قال عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: وأنا- والذي نفسي بيده- ما أخرجني غيرُ ذلك.

قومًا معي، فانطلقوا فأتوا بابَ أبي أيوبَ الأنصاريِّ رضيَ اللَّهُ عنه، وكان أبو أيوبَ يَدْخِرُ لِرَسُولِ

اللَّهِ كُلِّ يَوْمٍ طَعَامًا، فَإِذَا أَبْطَأَ عَنْهُ وَلَمْ يَأْتِ إِلَيْهِ فِي حِينِهِ أَطْعَمَهُ لِأَهْلِهِ.

فلما بلغوا البابَ خرَّحتْ إليهم أمُّ أيوبَ، وقالت:

مَرَحَبًا بِنَبِيِّ اللَّهِ وَبِمَنْ مَعَهُ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:
أَيْنَ أَبُو أَيُوبَ؟ فَسَمِعَ أَبُو أَيُوبَ صَوْتَ النَّبِيِّ - وَكَانَ يَعْمَلُ فِي نَخْلٍ قَرِيبٍ لَهُ - فَأَقْبَلَ يُسْرِعُ، وَهُوَ
يقول:

مَرَحَبًا بِرَسُولِ اللَّهِ وَبِمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ أَتْبَعَ قَائِلًا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَيْسَ هَذَا بِالْوَقْتِ الَّذِي كُنْتَ تَجِيءُ فِيهِ، فَقَالَ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: صَدَقْتَ، ثُمَّ انْطَلَقَ أَبُو أَيُوبَ إِلَى نَخِيلِهِ فَقَطَعَ مِنْهُ عِدْقًا فِيهِ تَمْرٌ وَرُطْبٌ وَبُسْرٌ ([10](#)).

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

مَا أَرَدْتُ أَنْ تَقْطَعَ هَذَا، أَلَا جَنَيْتَ لَنَا مِنْ تَمْرِهِ؟
قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْبَبْتُ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ تَمْرِهِ وَرُطْبِهِ وَبُسْرِهِ، وَلَا ذُبْحَنَ لَكَ أَيْضًا.
قال:

إِنْ ذُبِحْتَ فَلَا تَذُبِحَنَّ ذَاتَ لَبَنٍ.

فَأَخَذَ أَبُو أَيُوبَ جَدِيًّا فَذَبَحَهُ، ثُمَّ قَالَ لَامْرَأَتِهِ:

اعْجِبِي وَاحْبِزِي لَنَا، وَأَنْتِ أَعْلَمُ بِالْحَبِزِ، ثُمَّ أَخَذَ نِصْفَ الْجَدْيِ فَطَبَخَهُ، وَعَمَدَ إِلَى نِصْفِهِ الثَّانِي
فَشَوَاهُ، فَلَمَّا نَضَجَ الطَّعَامُ وَوُضِعَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ وَصَاحِبِيهِ، أَخَذَ الرَّسُولُ قِطْعَةً مِنَ الْجَدْيِ وَوَضَعَهَا فِي
رَغِيفٍ، وَقَالَ:

يَا أَبَا أَيُوبَ بَادِرِ [\(11\)](#) بِهَذِهِ الْقِطْعَةَ إِلَى فَاطِمَةَ، فَإِنَّهَا لَمْ تُصِبْ مِثْلَ هَذَا مِنْذُ أَيَّامٍ.

فَلَمَّا أَكَلُوا وَشَبِعُوا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

حَبِزٌ، وَلَحْمٌ، وَتَمْرٌ، وَبُسْرٌ، وَرُطْبٌ!!!

وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ هَذَا هُوَ النَّعِيمُ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا

أَصَبْتُمْ [\(12\)](#) مِثْلَ هَذَا فَضَرْبْتُمْ بِأَيْدِيكُمْ فِيهِ فَقُولُوا:

بِسْمِ اللَّهِ، فَإِذَا شَبِعْتُمْ فَقُولُوا:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ أَشْبَعَنَا وَأَنْعَمَ عَلَيْنَا فَأَفْضَلَ.

ثُمَّ نَهَضَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَقَالَ لِأَبِي أَيُوبَ:

اإْتِنَا غَدًا.

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَصْنَعُ لَهُ أَحَدٌ مَعْرُوفًا إِلَّا أَحَبَّ أَنْ يُجَازِيَهُ عَلَيْهِ؛ لَكِنَّ أَبَا أَيُوبَ لَمْ

يَسْمَعُ ذَلِكَ.

فَقَالَ لَهُ عَمْرُ رَضْوَانُ اللَّهُ عَلَيْهِ:

إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ غَدًا يَا أَبَا أَيُّوبَ.

فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ:

سَمِعًا وَطَاعَةً لِرَسُولِ اللَّهِ.

فَلَمَّا كَانَ الْعَدُوُّ ذَهَبَ أَبُو أَيُّوبَ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَأَعْطَاهُ وَلِيْدَةً (13) كَانَتْ تَخْدُمُهُ،

وَقَالَ لَهُ:

اسْتَوْصِ بِهَا خَيْرًا - يَا أَبَا أَيُّوبَ - فَإِنَّا لَمْ نَرِ مِنْهَا إِلَّا خَيْرًا مَا دَامَتْ عِنْدَنَا.

عَادَ أَبُو أَيُّوبَ إِلَى بَيْتِهِ وَمَعَهُ الْوَلِيْدَةُ؛ فَلَمَّا رَأَتْهَا أُمُّ أَيُّوبَ:

قَالَتْ: لِمَنْ هَذِهِ يَا أَبَا أَيُّوبَ؟!

قَالَ:

لَنَا... مَنَحَنَا إِيَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقَالَتْ:

أَعْظَمَ بِهِ مِنْ مَانِحٍ وَأَكْرَمَ بِهَا مِنْ مَنِحَةٍ .

فَقَالَ:

وَقَدْ أَوْصَانَا بِهَا خَيْرًا.

فَقَالَتْ:

كَيْفَ نَصَنَعُ بِهَا حَتَّى نُنْفِذَ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟

فَقَالَ:

وَاللَّهِ لَا أَجِدُ لَوْصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ بِهَا خَيْرًا مِنْ أَنْ أَعْتَقَهَا.

فَقَالَتْ:

هُدَيْتَ إِلَى الصَّوَابِ، فَأَنْتَ مُوَفَّقٌ... ثُمَّ أَعْتَقَهَا.

هَذِهِ بَعْضُ صُورِ حَيَاةِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ فِي سِلْمِهِ، فَلَوْ أُتِيحَ لَكَ أَنْ تَقِفَ عَلَى بَعْضِ صُورِ حَيَاتِهِ

فِي حَرْبِهِ لَرَأَيْتَ عَجَبًا...

فَقَدْ عَاشَ أَبُو أَيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طَوْلَ حَيَاتِهِ غَازِيًا حَتَّى قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ غَزْوَةٍ غَزَاهَا

الْمُسْلِمُونَ مُنْذُ عَهْدِ الرَّسُولِ إِلَى زَمَنِ مَعَاوِيَةَ إِلَّا إِذَا كَانَ مُنْشَغَلًا عَنْهَا بِأُخْرَى.

وَكَانَتْ آخِرُ غَزَوَاتِهِ حِينَ جَهَّزَ مَعَاوِيَةَ جَيْشًا بِقِيَادَةِ ابْنِهِ يَزِيدَ، لِفَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَكَانَ أَبُو

أيوبَ آنذاك شيخاً طاعناً في السن يجبو نحو الثمانين من عُمره فلم يَمْنَعَهُ ذلك من أن يَنْضوي (14) تَحْتَ لواءِ يزيدَ، وأن يَمْخُرَ عُبابَ (15) البَحْرِ غازياً في سبيلِ الله.

لكنّه لم يَمُضْ غيرُ قليلٍ على منازلةِ العدوِّ حتّى مَرَضَ أبو أيوبَ مَرَضاً أَقْعَدَهُ عن مُوَاصَلَةِ القِتالِ، فجاءَ يزيدُ لِيَعُودَهُ وسأله:

ألكَ من حاجةٍ يا أبا أيوبَ؟

فقال: اقرأ عني السلامَ على جنودِ المسلمين، وقُلْ لهم: يوصيكم أبو أيوبَ أن تُوغِلُوا في أرضِ العدوِّ إلى أبعدِ غايةٍ، وأن تَحْمِلُوهُ مَعَكُمْ، وأن تَدْفِنُوهُ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ عِنْدَ أسوارِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ. وَلَفَظَ أَنفاسَهُ الطَاهِرَةَ.

استجابَ جنْدُ المسلمين لِرَغْبَةِ صاحبِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وكروا على جُنْدِ العدوِّ الكَرَّةَ بَعْدَ الكَرَّةِ حتّى بلغوا أسوارَ القُسْطَنْطِينِيَّةِ وهم يَحْمِلُونَ أبا أيوبَ معهم. وهناك حَفَرُوا لَهُ قَبِراً ووَارَوْهُ فِيهِ.

رَحِمَ اللهُ أبا أيوبَ الأنصاريَّ، فقد أبلَى إلا أن يموتَ على ظُهورِ الجِيَادِ الصافِنَاتِ غازياً في سبيلِ الله... وسُنُّهُ تقاربِ الثمانين... (*)

(*) للاستزادة من أخبار أبي أيوب أنظر:

- 1- الإصابة- طبعة السعادة-: 89/2 - 290.
- 2- الاستيعاب (حيدر آباد): 1/ 152.
- 3- أسد الغابة: 143/5 - 144.
- 4- تهذيب التهذيب: 3/ 90 - 91.
- 5- تقريب التهذيب 1/ 213.
- 6- ابن خياط: 89، 140، 190، 3030.
- 7- تجريد أسماء الصحابة: 1/ 161.
- 8- خلاصة تذهيب تهذيب الكمال: 100، 101.

- 9- الجرح والتعديل: ج 1 ق 2 / 131.
- 10- صفة الصفة: 186/1 - 187.
- 11- الطبقات الكبرى: 484/3 - 485.
- 12- العبر: 56/1.
- 13- تاريخ الإسلام للذهبي: 327/2، 328.
- 14- شذرات الذهب: 57/1.
- 15- دائرة المعارف الإسلامية: 309/1، 310.
- 16- الجمع بين رجال الصحيحين: 118/1 - 119.
- 17- من أبطالنا الذين صنعوا التاريخ (لأبي لمط الفتوح التونسي): 105 - 110.
- 18- سلسلة أعلام المسلمين (رقم 4).
- 19- الأعلام: 336 / 2.

الدرس التالي



رجوع

- (1) في الخافقين: في الشرق والغرب.
- (2) الأنام: الخلق.
- (3) أشرعوا: فتحوا.
- (4) قباء: قرية تبعد عن المدينة نحو ميلين.
- (5) المنعة: القوة التي تمنع من يريده بسوء.
- (6) سقط في أيدي الزوجين: تحييراً وندما وركبهما هم.
- (7) من يغشانا: من يزورنا ويلم بنا.
- (8) انظر سيرته ص 179.
- (9) الهاجرة: نصف النهار في شدة القيظ.
- (10) العذق: غصن له شعب، والرطب: ما نضج من تمر النخل، والبسر: ما لم يكتمل نضجه.
- (11) بادر: عجل.
- (12) أصبتم: نلتم.

(13) وليدة: جارية صغيرة.

(14) ينضوي: يَنْضَم إلى الجيش.

(15) بمخر عُباب البحر: يشقّ أمواج البحر.

النعمان بن مقرن المزني

"إن للإيمان بيوتاً، وللنفاق بيوتاً،
وإن بيت بني مقرن من بيوت الإيمان "
"عبد الله بن مسعود"

كانت قبيلة مُزَيْنَةَ تتخذُ منازلها قريباً من يَثْرِبَ على الطريقِ الممتدَّةِ بين المدينةِ ومكَّةَ.
وكان الرسولُ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه قد هاجرَ إلى المدينةِ، وجعلتْ أخبارُه تصلُ تباعاً إلى مُزَيْنَةَ
مع الغادينِ والرائحينِ، فلا تسمعُ عنه إلا خيراً.
وفي ذاتِ عَشِيَّةٍ، جلسَ سيِّدُ القومِ، النعمانُ بنُ مقرنِ المزنيِّ، في ناديه مع إخوتهِ ومشيخةِ قبيلتهِ فقال
لهم:

يا قومِ واللهِ ما علمنا عن محمدٍ إلا خيراً، ولا سمعنا من دعوتهِ إلا مَرَحَمَةً وإحساناً وعدلاً، فما
بالنا (1) نُبطئُ عنه، والناسُ إليه يُسرِّعون؟!
ثم أتبعَ يقول:

أما أنا فقد عَزَمْتُ على أن أَعْدُوَ (2) عليه إذا أَصْبَحْتُ، فَمَنْ شاءَ منكم أن يكونَ معي فليَتَجَهَّزْ.
وكأنَّما مَسَّتْ كلماتُ النُّعْمَانِ وتراً مُرْهِفاً في نفوسِ القومِ، فما إنْ طَلَعَ الصُّبْحُ حتَّى وَجَدَ إِخْوَتَهُ
العشرةَ، وأربَعَ مائةَ فارسٍ من فرسانِ مُزَيْنَةَ قد جَهَّزُوا أَنفُسَهُمْ لِلْمُضِيِّ مَعَهُ إلى يَثْرِبَ لِلِقَاءِ النَّبِيِّ صلواتُ
اللهِ وسلامُه عليه، والدُّخُولِ في دينِ اللهِ.
يَبْدَأُ أن (3) النُّعْمَانُ اسْتَحَى أن يَفِدَ مع هذا الجمعِ الحاشِدِ على النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم دونَ أن
يَحْمَلَ له وللمسلمين شيئاً في يدهِ.

لكنَّ السَّنةَ الشَّهْبَاءَ (4) المُجْدِبَةَ التي مرَّتْ بها مُزَيْنَةُ لم تتركْ لها ضرعاً (5) ولا زرعاً.
فطافَ النُّعْمَانُ ببيتهِ وبيوتِ إِخْوَتِهِ، وجمَعَ كُلَّ ما أَبْقَاهُ لَهُمُ القَحْطُ من غُنِيَمَاتٍ، وساقها أَمَامَهُ
وقَدِمَ بها على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم، وأعلنَ هو ومن معه إسلامَهُم بينَ يَدَيْهِ.

اهتزَّتْ يَثْرِبُ من أقصاها إلى أقصاها فرحاً بالنُّعْمَانِ بنِ مُقرنٍ وصحبِهِ، إذْ لم يَسْبِقْ لبيَّتٍ من بيوتِ
العربِ أن أسلمَ منه أحدٌ عَشَرَ أحاً من أبٍ واحدٍ ومعهُم أربعُ مائةِ فارسٍ.

وسرَّ الرسولُ الكريمُ بإسلامِ النعمانِ أبلغَ السرورِ .
وتقبَّلَ اللهُ جَلَّ وَعَزَّ غَنِيَمَاتِهِ، وَأَنْزَلَ فِيهِ قِرْآنًا فَقَالَ:

{ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ، وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } (6) .

انضوى (7) النعمانُ به مُقرنٍ تحتَ رايةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم، وشهدَ معه غزواته كُلَّها غيرَ وان (8) ولا مُقصرٍ .
ولما آلتِ الخِلافةُ إلى الصِّديقيِّ وقفَ معه هو وقومه من بني مُزينةٍ وقفةً حازمةً كان لها اثرٌ كبيرٌ في القضاءِ على فتنَةِ الرِّدةِ .

ولما صارتِ الخِلافةُ إلى الفاروقِ كان للنعمانِ بنِ مقرنٍ في عهده شأنٌ ما يزالُ التاريخُ يذكُرُهُ بلسانِ نديِّ بالحَمْدِ، رطيبٍ بالثناءِ .

فقبيلَ القادسيَّةِ، أرسلَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ قائدُ جيوشِ المسلمينِ وفدًا إلى كِسْرَى يزدجُرِدَ برِئاسَةِ النُّعمانِ بنِ مُقرنٍ ليدعوهُ إلى الإسلامِ .

ولما بلغوا عاصِمَةَ كِسْرَى في المدائنِ استأذِنوا بالدُّخولِ عليه فأذنَ لهم، ثم دعا التَّرجُمانَ فقال له:
سَلِّمُوا: ما الذي جاءَ بكم إلى ديارِنَا وأغراكم (9) بَعزُونَا؟! لَعَلَّكُمْ طَمِعْتُمْ بنا واحترأتم علينا لأننَا
تَشَاغَلْنَا عَنْكُمْ، ولم نَشَأْ أَنْ نَبْطِشَ بكم .

فالتفتَ النعمانُ بنُ مُقرنٍ إلى مَنْ مَعَهُ وقال: إن شئتم أحببتهُ عنكم، وإن شاء أحدكم أن يتكلَّم
آثرتهُ (10) بالكلامِ، فقالوا:

بل تكلم، ثم التفتوا إلى كِسْرَى وقالوا هذا الرجلُ يتكلَّمُ بلسانِنَا فاستمع إلى ما يقول .

فحمدَ النُّعمانُ اللهُ وأثنى عليه، وصلى على نبيِّهِ وسلَّم، ثم قال:

إنَّ اللهُ رَحِمَنَا فَأرسلَ إلينا رسولًا يدلُّنا على الخيرِ ويأمرنا به، ويُعرفنا الشرَّ ويُنْهانا عنه .

ووعدنا- إن أحببناه إلى ما دعانا إليه- أن يُعطينا اللهُ خيري الدنيا والآخرة .

فما هو إلا قليلٌ حتَّى بدَّلَ اللهُ ضيقنا سعةً، ودلَّتنا عِزَّةً، وعداوتنا إخاءً ومرحمةً .

وقد أمرنا أن ندعوَ الناسَ إلى ما فيه خيرهم وأن نبدأَ بمن يجاورنا .

فنحن ندعوكم إلى الدخولِ في ديننا، وهو دين حسن الحسَن كُلُّهُ وحضَّ (11) عليه، وقبَّح القبيحِ

كَلَّهُ وَحَذَرَ مِنْهُ، وَهُوَ يَنْقَلُ مُعْتَنِقِيهِ (12) مِنْ ظِلَامِ الْكُفْرِ وَجَوْرِهِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَعَدْلِهِ.
فَإِنْ أَجَبْتُمُونَا إِلَى الْإِسْلَامِ خَلَفْنَا فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَمْنَاكُمْ عَلَيْهِ، عَلَى أَنْ تَحْكُمُوا بِأَحْكَامِهِ،
وَرَجَعْنَا عَنْكُمْ وَتَرَكْنَاكُمْ وَشَأْنَكُمْ.

فَإِنْ أَبِيْتُمْ الدَّخُولَ فِي دِينِ اللَّهِ أَخَذْنَا مِنْكُمْ الْجِزْيَةَ وَحَمَيْنَاكُمْ، فَإِنْ أَبِيْتُمْ إِعْطَاءَ الْجِزْيَةِ
حَارَبْنَاكُمْ .

فَاسْتَشَاطَ (13) يَزْدَجِرُدُ غَضَبًا وَغَيْظًا مِمَّا سَمِعَ، وَقَالَ:

إِنِّي لَا أَعْلَمُ أُمَّةً فِي الْأَرْضِ كَانَتْ أَشَقَى مِنْكُمْ وَلَا أَقَلَّ عِدْدًا، وَلَا أَشَدَّ فُرْقَةً، وَلَا أَسْوَأَ حَالًا.

وَقَدْ كُنَّا نَكُلُّ أَمْرَكُمْ إِلَى وُلاةِ الصَّوَاخِي فَيَأْخُذُونَ لَنَا الطَّاعَةَ مِنْكُمْ.

فَإِنْ كَانَتْ الْحَاجَةُ هِيَ الَّتِي دَفَعْتَكُمْ إِلَى الْمَجِيءِ إِلَيْنَا أَمَرْنَا لَكُمْ بِقِيَامِ دِيَارِكُمْ،
وَكَسَوْنَا سَادَتِكُمْ وَوُجُوهَ قَوْمِكُمْ، وَمَلَّكْنَا (14) عَلَيْكُمْ مَلَكًا مِنْ قِبَلِنَا يَرْفُقُ بِكُمْ.

فَرَدَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْوَفْدِ رَدًّا أَشْعَلَ نَارَ غَضَبِهِ مِنْ جَدِيدٍ فَقَالَ:

لَوْلَا أَنَّ الرَّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَقَتَلْتُكُمْ.

قَوْمُوا فَلَيْسَ لَكُمْ شَيْءٌ عِنْدِي، وَأَخْبِرُوا قَائِدَكُمْ أَنِّي مُرْسِلٌ إِلَيْهِ "رُسْتُمْ" (15) حَتَّى يَدْفِنَهُ
وَيَدْفِنَكُمْ مَعًا فِي حَنْدَقِ الْقَادِسِيَّةِ (16).

ثُمَّ أَمَرَ فَاتِي لَهُ بِحِمْلِ تُرَابٍ ، وَقَالَ لِرِجَالِهِ: حَمِّلُوهُ عَلَى أَشْرَفِ هَوْلَاءِ، وَسَوْقُوهُ أَمَامَكُمْ ع لِي
مَرَأَى مِنَ النَّاسِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ أَبْوَابِ عَاصِمَةَ مُلْكِنَا. فَقَالُوا لِلْوَفْدِ:

مَنْ أَشْرَفُكُمْ؟ فَبَادَرَ إِلَيْهِمْ عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ وَقَالَ: أَنَا.

فَحَمِّلُوهُ عَلَيْهِ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمَدَائِنِ، ثُمَّ حَمَلَهُ عَلَى نَاقَتِهِ وَأَخَذَهُ مَعَهُ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَبَشَّرَهُ بِأَنَّ
اللَّهَ سَيَفْتَحُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ دِيَارَ الْفَرَسِ وَيُمَلِّكُهُمْ تُرَابَ أَرْضِهِمْ.

ثُمَّ وَقَعَتْ مَعْرَكَةُ الْقَادِسِيَّةِ، وَاکْتَنَظَ (17) حَنْدَقُهَا بِجُثِّ آلَافِ الْقَتْلَى، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ جُنْدِ
الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا كَانُوا مِنْ جُنُودِ كِسْرَى.

لَمْ يَسْتَكَنِ الْفَرَسُ لِهَزِيمَةِ الْقَادِسِيَّةِ، فَجَمَعُوا جَمُوعَهُمْ، وَجَيَّشُوا جُيُوشَهُمْ حَتَّى اكْتَمَلَ لَهُمْ مِائَةٌ
وَخَمْسُونَ أَلْفًا مِنْ أَشَدِّاءِ الْمُقَاتِلِينَ.

فَلَمَّا وَقَفَ الْفَارُوقُ عَلَى أَخْبَارِ هَذَا الْحَشْدِ الْعَظِيمِ، عَزَمَ عَلَى أَنْ يَمْضِيَ إِلَى مُوَاجَهَةِ هَذَا الْخَطَرِ
الْكَبِيرِ بِنَفْسِهِ.

وَلَكِنَّ وَجُوهَ الْمُسْلِمِينَ ثَنُوهُ (18) عَنْ ذَلِكَ، وَأَشَارُوا عَلَيْهِ أَنْ يُرْسِلَ قَائِدًا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي مِثْلِ هَذَا

الأمرِ الجليل.

فقال عمرُ:

أشيروا عليَّ برجل لأوَّليَّه ذلك الثَّغر.

فقالوا:

أنتَ أعلمُ بِجُنْدِكَ يا أميرَ المؤمنين.

فقال:

والله لأوَّلينَّ علي جُنْدِ المسلمين رجلاً يكونُ- إذا التَّقَى الجَمْعانِ- أسبقَ من الأسنَّة، هو النُّعمانُ بنُ مُقرِّنِ المُرَبِّ.

فقالوا:

هو لها.

فكتبَ إليه يقول:

من عبدِ اللهِ عمرَ بنِ الخطابِ إلي النُّعمانِ بنِ مُقرِّن.

أما بعد. فَإِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّ جَمِوعاً مِنَ الأَعاجِمِ كَثِيرَةً قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ بِمَدِينَةِ "نَهاوَنَد". فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَسِرْ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَبِعَوْنِ اللَّهِ، وَبِنَصْرِ اللَّهِ بَمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تُؤَطِّعْهُمْ وَعِراً فَتُؤَذِّبَهُمْ.. فَإِنَّ رَجُلًا وَاحِدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ.

هب النعمان بجيشه للقاء العدو وأرسل أمامه طلائع من فرسانه لتكشف له الطريق. فلما اقتربَ الفرسانُ من "نَهاوَنَد" تَوَقَّفتْ خيولُهُمْ، فدفعوها فلم تَنَدِفِعْ، فَنَزَلُوا عَنْ ظُهُورِهَا لِيَعْرِفُوا الْخَبَرَ فوجدوا في حَوَافِرِ الخيلِ شظايا من الحديدِ تُشَبِّهُ رُؤُوسَ المِساميرِ، فَنَظَرُوا فِي الأَرْضِ فَإِذَا العِجَمُ قَدْ نَثَرُوا فِي الدُّرُوبِ المُؤَدِّيَةِ إِلَى "نَهاوَنَد" حَسَكَ الحديدِ، لِيَعُوقُوا الفُرْسَانَ والمِشاةَ عَنِ الوُصُولِ إِلَيْهَا.

أخبرَ الفُرْسَانُ النُّعمانَ بما رَأَوْا، وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُمِدَّهُمْ بِرَأْيِهِ، فَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَقِفُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ، وَأَنْ يُوَقِدُوا النيرانَ فِي اللَّيْلِ لِيَرَاهُمُ العَدُوُّ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَظَاهَرُونَ بِالخُوفِ مِنْهُ وَالمُهِزِمَةَ أَمَامَهُ لِيُعْرُوهُ بِاللَّحَاقِ بِهِمْ وَإِزَالَةَ مَا زَرَعَهُ مِنْ حَسَكِ الحديدِ.

وجازتِ الحيلةُ على الفُرْسِ، فَمَا إِنَّ رَأُوا طَلِيعَةَ جيشِ المسلمين تَمَضَى مُنْهَزِمَةً أَمَامَهُمْ حَتَّى أَرْسَلُوا عُمَّالَهُمْ فَكَنَسُوا الطَّرِيقَ مِنَ الحَسَكِ، فَكَّرَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ وَاحْتَلُّوا تِلْكَ الدُّرُوبَ.

عَسَكَرَ النُّعمانُ بنُ مُقرِّنٍ بِجَيْشِهِ عَلَى مَشَارِفِ "نَهاوَنَد" وَعَزَمَ عَلَى أَنْ يُبَاغِتَ عَدُوَّهُ بِالمُهِجَمِ، فَقَالَ

لجنوده:

إني مُكَبَّرٌ ثلاثاً، فإذا كَبَّرْتُ الأولى فَلْيَتَهَيَّأْ مَنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَهَيَّأَ، وإذا كَبَّرْتُ الثَّانِيَةَ فَلْيَشْدُدْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ سِلَاحَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فإذا كَبَّرْتُ الثَّالِثَةَ، فَإِنِّي حَامِلٌ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ فَاحْمِلُوا مَعِي.

كَبَّرَ النِّعْمَانُ بْنُ مُقَرَّنٍ تَكْبِيرَاتِهِ الثَّلَاثَ، وَانْدَفَعَ فِي صُفُوفِ الْعَدُوِّ كَأَنَّهُ اللَّيْثُ عَادِيًا، وَتَدَفَّقَ وَرَاءَهُ جُنُودُ الْمُسْلِمِينَ تَدَفَّقَ السَّيْلُ، وَدَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ رَحَى مَعْرَكَةِ ضَرُوسٍ قَلَّمَا شَهِدَ تَارِيخُ الْحُرُوبِ لَهَا نَظِيرًا.

فَتَمَزَّقَ جَيْشُ الْفَرَسِ شَرًّا مُمَزَّقٍ، وَمَلَأَتْ قَتْلَاهُ السَّهْلَ وَالْجِبَلَ. وَسَالَتْ دِمَاؤُهُ فِي الْمَمَرَاتِ وَالذُّرُوبِ، فَزَلِقَ جِوَادُ النِّعْمَانِ بْنِ مُقَرَّنٍ بِالدِّمَاءِ فَصُرَعَ، وَأَصِيبَ النِّعْمَانُ نَفْسُهُ إِصَابَةً قَاتِلَةً، فَأَخَذَ أَخُوهُ اللَّوَاءَ مِنْ يَدِهِ، وَسَجَّاهُ (19) بِبُرْدَةٍ كَانَتْ مَعَهُ وَكَتَمَ أَمْرَ مَصْرَعِهِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ.

وَمَا تَمَّ النِّصْرُ الْكَبِيرُ الَّذِي سَمَّاهُ الْمُسْلِمُونَ "فَتْحُ الْفَتْوحِ".

سَأَلَ الْجُنُودُ الْمُتَنَصِّرُونَ عَنْ قَائِدِهِمُ الْبَاسِلِ النِّعْمَانِ بْنِ مُقَرَّنٍ .

فَرَفَعَ أَخُوهُ الْبُرْدَةَ عَنْهُ وَقَالَ:

هَذَا أَمِيرُكُمْ، قَدْ أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَهُ بِالْفَتْحِ، وَخَتَمَ لَهُ بِالشَّهَادَةِ (*).

(*) للاستزادة من أخبار النعمان بن المقرن انظر:

1- الإصابة: الترجمة: 8745.

2- ابن الأثير 2/ 211 و 3/ 7.

3- تهذيب التهذيب: 10/ 456.

4- فتوح البلدان: 311.

5- شرح ألفية العراقي: 3/ 76.

6- الأعلام: 9/ 9.

7- القادسية: 66- 73 (منشورات دار النفائس - بيروت).



-
- (1) ما بالنا: كلمة تقال عند التعجب من فعل شيء أو تركه.
 - (2) أجدو عليه: أذهب إليه في الغداة. والغداة: البكرة. وهي ما بين الفجر وطلوع الشمس.
 - (3) بيد أن: غير أن.
 - (4) السنة الشهباء: السنة المجدبة التي لا خضرة فيها.
 - (5) ضرعاً: الضرع كناية عن النعم.
 - (6) 1لتوبة: 99.
 - (7) انضوى: انضم ودخل.
 - (8) غير وان ولا مقصر.
 - (9) أغراكم بغزونا: رغبكم بغزونا وحضكم عليه.
 - (10) آثرته بالكلام: فضلته وجعلته يتكلم أولاً.
 - (11) حض عليه: رغب فيه وحث عليه.
 - (12) معتنقيه: المؤمنين به.
 - (13) اشتشاط غضباً: اشتعل.
 - (14) ملكنا عليكم: ولينا عليكم.
 - (15) رستم: قائد جيش الفرس.
 - (16) القادسية: مكان في العراق غربي النجف وقعت فيه معركة الكبرى الفاصلة التي دعيت بمعركة القادسية.
 - (17) اكتظ خندقها: امتلأ خندقها.
 - (18) ثنوه: ردوه.
 - (19) سجاه: غطاه.

أُسَيْدُ بِنِ الْحُضَيْرِ

" تلك الملائكة كانت

تستمع إليك يا أسيد"

محمد رسول الله

قَدِمَ الْفَتَى الْمَكِّيُّ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ إِلَى يَثْرِبَ (1)، فِي أَوَّلِ بَعْتَةِ تَبَشِيرِيَّةٍ عَرَفَهَا تَارِيخُ الْإِسْلَامِ. فَنَزَلَ عَلَى أَسْعَدَ بْنِ زُرَّارَةَ أَحَدِ أَشْرَافِ الْخَزْرَجِ (2)، وَاتَّخَذَ مِنْ دَارِهِ مَقَامًا لِنَفْسِهِ، وَمُنْطَلَقًا لِبَثِّ دَعْوَتِهِ إِلَى اللَّهِ، وَالتَّبَشِيرِ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ.

وَأَخَذَ أَبْنَاءُ يَثْرِبَ يُقْبِلُونَ عَلَى مَجَالِسِ الدَّاعِيَةِ الشَّابِّ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ إِقْبَالًا كَبِيرًا. وَكَانَ يُعْرِيهِمُ (3) بِهِ عُدْوَبَةَ حَدِيثِهِ، وَوَضُوحَ حُجَّتِهِ، وَرِقَّةَ شَمَائِلِهِ (4)، وَوَضَاعَةَ الْإِيمَانِ الَّتِي تُشْرِقُ مِنْ وَجْهِهِ الْقَسِيمِ الْوَسِيمِ (5).

وَكَانَ يَجْذِبُهُمْ إِلَيْهِ شَيْءٌ آخَرَ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ، هُوَ هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي كَانَ يَتْلُو عَلَيْهِمْ بَيْنَ الْفَيْئَةِ وَالْفَيْئَةِ (6) بَعْضًا مِنْ آيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ، بِصَوْتِهِ الشَّجِيِّ الرَّحِيمِ، وَتَبَرَّاتِهِ الْحُلُوةِ الْآسِرَةِ، فَيَسْتَلِينُ بِهِ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ، وَيَسْتَدِرُّ الدُّمُوعَ الْعَاصِيَةَ، فَلَا يَنْفُضُ (7) الْمَجْلِسُ مِنْ مَجَالِسِهِ إِلَّا عَنْ أَنَاسٍ أَسْلَمُوا وَأَنْضَمُّوا إِلَى كِتَائِبِ الْإِيمَانِ.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ، خَرَجَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ بِضَيْفِهِ الدَّاعِيَةِ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ، لِيَلْقَى جَمَاعَةً مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، وَيَعْرِضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ، فَدَخَلَا بُسْتَانًا مِنْ بَسَاتِينِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، وَجَلَسَا عِنْدَ بَيْتِهَا الْعَذْبَةِ فِي ظِلَالِ النَّخِيلِ.

فَاجْتَمَعَ عَلَى مُصْعَبِ جَمَاعَةٌ قَدْ أَسْلَمُوا وَآخَرُونَ يَرِيدُونَ أَنْ يَسْمَعُوا، فَانْطَلَقَ يَدْعُو وَيُيَشِّرُ، وَالنَّاسُ إِلَيْهِ مَنْصُتُونَ، وَبِرُوعَةٍ حَدِيثِهِ مَأْخُودُونَ.

فَجَاءَ مَنْ أَخْبَرَ أَسَيْدَ بْنَ الْحُضَيْرِ وَسَعْدَ بْنَ مَعَاذٍ - وَكَانَا سَيِّدِي الْأَوْسِ (8) - بِأَنَّ الدَّاعِيَةَ الْمَكِّيَّةَ قَدْ نَزَلَ قَرِيبًا مِنْ دِيَارِهِمَا، وَأَنَّ الَّذِي جَرَّاهُ عَلَى ذَلِكَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ. فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ لِأَسَيْدِ بْنِ الْحُضَيْرِ:

لا أبا لك يا أسيدُ (9)، انطلق إلى هذا الفتى المكي الذي جاء إلى بيوتنا ليُعري (10) ضعفاءنا،
ويُسفِهَ آهتنا، وازجره (11)، وحدّره من أن يَطأ ديارنا بعد اليوم.
ثم أردف يقول:

ولولا أنه في ضيافة ابن خالتي أسعد بن زُرارة، وأنه يمشي في حمايته لكفيتك ذلك.

أخذ أسيدُ حرّيته، ومضى نحو البُستان، فلما رآه أسعدُ بنُ زُرارة مُقبلاً قال لمصعب:
ويحك يا مُصعب، هذا سيّد قوم، وأرجحهم عقلاً، وأكملهم كمالاً: أسيدُ بنُ الحُضير.
فإن يُسلم تبعه في إسلامه خلّق كثير، فاصدق الله فيه، وأحسن التّائي له (12).

وقف أسيدُ بنُ الحُضير على الجَمع، والتفت إلى مُصعبٍ وصاحبه وقال:
ما جاء بكما إلى ديارنا، وأغراكما بضِعائنا؟! اعتزلا هذا الحيّ (13) إن كانت لكما بنفسيكما
حاجة (14).

فالتفت مُصعب إلى أسيدٍ بوجهه المشرق بنور الإيمان، وخاطبه بلهجة الصادقة الآسرة وقال له:
يا سيّد قوم، هل لك في خيرٍ من ذلك.

قال:

وما هو؟

قال:

تجلسُ إلينا وتسمع منا، فإن رضيت ما قلناه قبلته، وإن لم ترضه تحولنا عنكم ولم نعد إليكم.
فقال أسيدُ:

لقد أنصفت، وركز رُمحه في الأرض وجلس.

فأقبل عليه مُصعب يذكُر له حقيقة الإسلام، ويقرأ عليه شيئاً من آيات القرآن؟ فانبسط أساريره
وأشرق وجهه وقال:

ما أحسن هذا الذي تقول، وما أجل ذلك الذي تتلو!!!

كيف تصنعون إذا أردتم الدخول في الإسلام!.

فقال له مصعب:

تغتسل وتطهر ثيابك، وتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتُصلي ركعتين.

فقام إلى البئر فتطهر بمائها، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وصلى ركعتين.

فانضم في ذلك اليوم إلى كتائب الإسلام فارس من فرسان العرب المرموقين (15)، وسيد من سادات الأوس المعدودين.

كان يُلقبهُ قومه بالكامِل، لرجاحة عقله، ونبالة أصله، ولأنه ملك السيِّف والقلم، إذ كان بالإضافة إلى فروسيته ودقة رميه، قارئاً كاتباً في مجتمع ندر فيه من يقرأ ويكتب.

وقد كان إسلامه سبباً في إسلام سعد بن معاذ .

وكان إسلامهما معاً سبباً في أن تُسلم جموع غفيرة (16) من الأوس.

وأن تُصبح المدينة بعد ذلك مهاجراً (17) لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموثلاً (18) وقاعدة لدولة الإسلام العظمى.

أولع (19) أسيد بن الحضير بالقرآن - منذ سمعه من مُصعب بن عمير - ولع المحب بجبيهه - وأقبل عليه إقبال الظامئ على المورد العذب في اليوم القاطئ، وجعله شغله الشاغل.

فكان لا يرى إلا مُجاهداً غازياً في سبيل الله، أو عاكفاً يتلو كتاب الله.

وكان رخيم الصوت، مبین النطق، مُشرق الأداء، تطيب له قراءة القرآن أكثر ما تطيب إذا سكن الليل، ونامت العيون، وصفت النفوس.

وكان الصحابة الكرام يتحنون (20) أوقات قراءته، ويتسابقون إلى سماع تلاوته.

فيا سعد من يتأخ له أن يسمع القرآن منه رطباً طرياً كما أنزل على محمد .

وقد استعذب أهل السماء تلاوته؟ استعذبها أهل الأرض.

ففي جوف ليلة من الليالي كان أسيد بن الحضير جالساً في مرَبده (21)، وابنه يحيى نائم إلى جانبه، وفرسه التي أعدها للجهاد في سبيل الله مُرتبطة غير بعيد عنه.

وكان الليل وادعاً ساجياً (22)، وأديم السماء رائقاً صافياً، وعيون النجوم ترمق الأرض الهاجعة

بجنان وعطف .

فتأقت (23) نفس أسيد بن الحضير لأن يعطر هذه الأجواء النديّة بطيوب القرآن، فانطلق يتلو بصوته الرخيم الحنون.

{ الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا

رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُؤْفِقُونَ } (24).

فإذا به يسمع فرسه وقد جالت (25) جولة كادت تقطع بسببها رباطها، فسكت، ف سكنت

الفرس وقرت.

فَعَادَ يَقْرَأُ:

{ **أَوْلَيْكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأَوْلَيْكَ هُمْ الْمَفْلُحُونَ** } (26).

فَجَالَتْ الْفَرَسُ حَوْلَهُ أَشَدَّ مِنْ تَلْكَ وَأَقْوَى.

فسكت..

فسكنت..

وَكَّرَرَ ذَلِكَ مِرَاراً، فَكَانَ إِذَا قَرَأَ أَجْفَلَتْ (27) الْفَرَسُ وَهَاجَتْ، وَإِذَا سَكَتَ سَكَنْتْ وَقَرَّتْ.

فَخَافَ عَلَى ابْنِهِ يَجِيءُ أَنْ تَطَّاهُ، فَمَضَى إِلَيْهِ لِيُوقِظَهُ، وَهَنَا حَانَتْ مِنْهُ التَّفَاقُتُ إِلَى السَّمَاءِ، فَرَأَى غَمَامَةً كَالْمِظَلَّةِ لَمْ تَرَ الْعَيْنُ أَرْوَعَ وَلَا أَبْهَى مِنْهَا قَطُّ وَقَدْ عُلِقَ بِهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَمَلَأَتْ الْأَفَاقَ ضِيَاءً وَسِنَاءً، وَهِيَ تَصْعَدُ إِلَى الْأَعْلَى حَتَّى غَابَتْ عَنْ نَازِرِيهِ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ مَضَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَصَّ عَلَيْهِ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

" تَلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ يَا أَسِيدُ.. وَلَوْ أَنَّكَ مَضَيْتَ فِي قِرَاءَتِكَ لَرَأَاهَا النَّاسُ وَلَمْ تَسْتَتِرْ مِنْهُمْ " (28).

وَكَمَا أَوْلَعَ أَسِيدُ بْنُ الْحُضَيْرِ بَكْتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَوْلَعَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ — كَمَا حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ — أَصْفَى مَا يَكُونُ صَفَاءً وَأَشَدَّ مَا يَكُونُ شَفَافِيَةً وَإِيمَانًا حِينَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ أَوْ يَسْمَعُهُ. وَحِينَ يَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَخْطُبُ أَوْ يُحَدِّثُ. وَكَانَ كَثِيراً مَا يَتَمَنَّى أَنْ يَمَسَّ جَسَدَهُ جَسَدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَنْ يُكَبَّ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ مُقْبَلٌ..

وقد أتيح (29) له ذلك ذات مرة.

فَفِي ذَاتِ يَوْمٍ كَانَ أَسِيدُ يُطْرِفُ الْقَوْمَ بِمَلْحِهِ (30)، فَغَمَزَهُ (31) رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خَاصِرَتِهِ بِيَدِهِ، كَأَنَّهُ يَسْتَحْسِنُ مَا يَقُولُ. فَقَالَ أَسِيدُ:

أَوْجَعْتَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

اِقْصِ مَنِّي يَا أَسِيدُ.

فَقَالَ أَسِيدُ:

إِنَّ عَلَيْكَ قَمِيصًا وَلَمْ يَكُنْ عَلَيَّ قَمِيصٌ حِينَ غَمَزْتَنِي.
فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَمِيصَهُ عَنْ جَسَدِهِ، فَاحْتَضَنَهُ أَسِيدٌ وَجَعَلَ يُقَبِّلُ مَا بَيْنَ إِبْطِهِ
وخاصرته وهو يقول:

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إنها لبغية كنت أتمناها منذ عرفتك، وقد بلغتها الآن.
وقد كان الرسول صلوات الله عليه يُبادل أسيداً حباً بحُب، ويحفظ له سابقته في الإسلام وذوده (32)
عنه يوم أحد حتى إنه طعن سبعة طعنات مميتات في ذلك اليوم.
وكان يعرف له قدره ومنزلته في قومه، فإذا شفع في أحد منهم شفعه فيه.
حدث أسيد قال:

جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له أهل بيت من الأنصار فيهم محاويج
(33). وجل أهل ذلك البيت نسوة، فقال عليه الصلاة والسلام:
لقد جئتنا يا أسيد بعد أن أنفقنا ما بأيدينا، فإذا سمعت بشيء قد جاءنا فاذكر لنا أهل ذلك البيت.
فجاءه بعد ذلك مال من خير فقسمه بين المسلمين فأعطى الأنصار وأجزل (34)، وأعطى
أهل ذلك البيت وأجزل، فقلت له:
جزاك الله عنهم - يا نبي الله - خيراً.
فقال:

وأنتم معشر الأنصار جزاكم الله أطيب الجزاء، فإتكم - ما علمت (35) - أعفة صبر، وإتكم
ستلقون أثره بعدي (36)، فاصبروا حتى تلقوني، وموعدهم الحوض (37).
قال أسيد:

فلما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قسم بين المسلمين مالا ومتاعاً، فبعث إلي
بحلة فاستصغرتها..

فبينما أنا في المسجد إذ مر بي شاب من قريش عليه حلة سابعة (38) من تلك الحلل التي أرسلها إلي
عمر، وهو يجرها على الأرض جراً، فذكرت لمن معي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .
" إنكم ستلقون أثره من بعدي "، وقلت: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فانطلق رجل إلى عمر واخبره بما قلت، فجاءني مسرعاً وأنا أصلي فقال:
صل يا أسيد:

فلما قضيت صلاتي أقبل علي وقال:

ماذا قلت؟

فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا رَأَيْتُ وَبِمَا قَلْتُ.

فقال:

عفا الله عنك، تِلْكَ حُلَّةٌ بَعَثْتُ بِهَا إِلَى فُلَانٍ ، وَهُوَ أَنْصَارِيٌّ عَقَبِيٌّ بَدْرِيٌّ أَحَدِيٌّ (39)، فشرها منه هذا الفتى القَرَشِيُّ وَلَبِسَهَا.

أَفْتَضُنُّ أَنْ هَذَا الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُونُ فِي زَمَانِي !!؟
فقال أَسَيْدٌ :

وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ فِي زَمَانِكَ.

لَمْ يَعِشْ أَسَيْدُ بْنُ الْحَضِيرِ بَعْدَ ذَلِكَ طَوِيلًا، فَقَدْ اخْتَارَهُ اللَّهُ إِلَى جَوَارِهِ فِي عَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ عُمَرَ.

فَوُجِدَ أَنَّ عَلَيْهِ دَيْنًا مِقْدَارُهُ أَرْبَعَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ، فَهَمَّ وَرَثَتُهُ بِبَيْعِ أَرْضٍ لَهُ لِيُوفِيَ دَيْونَهُ فَلَمَّا عَرَفَ عُمَرُ ذَلِكَ قَالَ:

لَا أَتْرُكُ بَنِي أَخِي أَسَيْدَ عَالَةً عَلَى النَّاسِ..

ثُمَّ كَلَّمَ الْعُرْمَاءَ (40) فَرَضُوا بِأَنْ يَشْتَرُوا مِنْهُ ثَمَرَ الْأَرْضِ أَرْبَعِ سِنِينَ، كُلُّ سَنَةٍ بِأَلْفٍ (*).

(*) للاستزادة من أخبار أسيد بن الحضير انظر:

- 1- البخاري ومسلم (باب فضائل الصحابة).
- 2- جامع الأصول: 378/9.
- 3- طبقات ابن سعد: 3 / 603.
- 4- تهذيب التهذيب: 1 / 347.
- 5- أسد الغابة: 1 / 92.
- 6- حياة الصحابة: (انظر الفهارس في الجزء الرابع).
- 7- الأعلام ومراجعته.

- (1) يثرب: المدينة المنورة.
- (2) الخزرج: قبيلة عربية يمانية ارتحلت وأختها الأوس إلى الحجاز بعد خراب سد مأرب واستوطنت المدينة.
- (3) يغريهم به: يولعهم به.
- (4) رقة شمائله: رقة طباعه.
- (5) القسم الوسيم: الجميل الحسن.
- (6) بين الفينة والفينة: بين الحين والحين.
- (7) ينفض المجلس: يتفرق المجلس.
- (8) الأوس: قبيلة يمانية ارتحلت هي وأختها "الخزرج" إلى المدينة واستقرت فيها.
- (9) لا أبا لك: كلمة اتقال في الذم والمدح، والمراد بما هنا المدح.
- (10) ليغري ضعفاءنا: ليخض ضعفاءنا على الإسلام ويزينه لهم.
- (11) ازجره: امنعه.
- (12) أحسن التأني له: أحسن عرض الأمر عليه.
- (13) اعتزلا هذا الحي: ابتعدا عنه.
- (14) إن كانت لكما بنفسيكما حاجة: كناية عن التهديد بالقتل.
- (15) المرموقين: الذين ينظر الناس إليهم إعجاباً بهم.
- (16) غفيرة: محيرة وفيرة.
- (17) مهاجراً لرسول الله: مكاناً لهجرته.
- (18) موثلاً: ملاذاً وملجأً.
- (19) أولع بالقرآن: أحبه حباً شديداً وتعلق به.
- (20) يتحننون أوقات قراءته: يترقبون أوقات قراءته ويطرصدونها.
- (21) المربد: فضاء وراء البيت.
- (22) ساجياً: ساكناً.
- (23) تاقت نفسه: رغبت واشتاقت.
- (24) سورة البقرة: 1 - 4.
- (25) جالت جولة: دارت دورة.
- (26) سورة البقرة: 5.
- (27) أجفلت الفرس: نفرت.
- (28) ورد أصل هذا الخبر في البخاري ومسلم.
- (29) أتيح له: يُسرَّ له ومُكِّنَ منه.
- (30) بملحه: بطرائفه ونكته.
- (31) غمزه بيده: طعنه بها.
- (32) ذوده عنه: دفاعه عنه.
- (33) محاويع: فقراء محتاجون.

(34) أجزل: أكثر.

(35) ما علمت: طول مدة معرفتي إياكم.

(36) إنكم ستلقون أثره بعدي: أي إنَّ الناس سيستأثرون بالخير من دونكم.

(37) انظر أصل الخبر في البخاري ومسلم.

(38) حلة سابعة: حلة طويلة واسعة.

(39) عقي: نسبة إلى العقبة حيث بايع الأنصار الرسول صلى الله عليه وسلم تلك البيعة المشهورة، وبدرى: نسبة إلى موقعة بدر،

وأحدي: نسبة إلى موقعة أحد.

(40) الغرماء: الدائون.

عبدُ الله بنُ مسعود

مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبًا كَمَا نَزَلَ ،

فَلْيَقْرَأْ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ

محمد رسول الله

كان يومئذٍ غلاماً لم يجاوزِ الحُلُمَ، وكان يَسْرَحُ في شِعَابِ (1) مَكَّةَ بَعِيداً عَنِ النَّاسِ، وَمَعَهُ غَنَمٌ يِرْعَاهَا لِسَيِّدٍ مِنْ سَادَاتِ قَرِيْشٍ هُوَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ .

كان الناسُ يُنادونَه: "ابنَ أُمِّ عَبْدِ" أمَّا اسمُه فهو عبدُ اللهِ وأمَّا اسمُ أبيه "فَمَسْعُودٌ".

كان الغُلامُ يَسْمَعُ بِأَخْبَارِ النَّبِيِّ الَّذِي ظَهَرَ فِي قَوْمِهِ فَلَا يَأْبَهُ لَهَا (2) لَصِغَرِ سِنِّهِ مِنْ جِهَةِ ، وَلِبُعْدِهِ عَنِ الْمَجْتَمَعِ الْمَكِّيِّ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى، فَقَدْ دَابَّ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ بَغْنَمَ عُقْبَةَ مُنْذُ الْبُكُورِ ثُمَّ لَا يَعُودُ بِهَا إِلَّا إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ.

وفي ذاتِ يومٍ أَبْصَرَ الْغُلامُ الْمَكِّيَّ عَبْدَ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ كَهَلَيْنِ عَلَيْهِمَا الْوَقَارُ يَتَّجِهَانِ نَحْوَهُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَقَدْ أَخَذَ الْجُهْدُ مِنْهُمَا كُلَّ مَاخِذٍ (3)، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمَا الظَّمْأُ حَتَّى حَفَّتْ مِنْهُمَا الشِّفَاهُ وَالْحَلُوقُ. فَلَمَّا وَقَفَا عَلَيْهِ، سَلَّمَا وَقَالَا:

يا غلامُ، احْلِبْ لَنَا مِنْ هَذِهِ الشِّيْءِ مَا نُطْفِئُ بِهِ ظَمَانَا وَنُبَلِّ عُرُوقَنَا.

فقال الغلامُ:

لا أَفْعَلُ، فَالْعَنَمُ لَيْسَتْ لِي، وَأَنَا عَلَيْهَا مُؤْتَمِنٌ ... فَلَمْ يُنْكِرِ الرَّجُلَانِ قَوْلَهُ، وَبَدَا عَلَى وَجْهِهِمَا الرِّضَا عَنْهُ.

ثم قال له أحدهما:

دُلَّنِي عَلَى شَاةٍ لَمْ يَنْزُ عَلَيْهَا فَحْلٌ ، فَأَشَارَ الْغُلامُ إِلَى شَاةٍ صَغِيرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ، فَتَقَدَّمَ مِنْهَا الرَّجُلُ وَاعْتَقَلَهَا، وَجَعَلَ يَمْسَحُ ضَرْعَهَا (4) بِيَدِهِ وَهُوَ يَذْكُرُ عَلَيْهَا اسْمَ اللهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ الْغُلامُ فِي دَهْشَةٍ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ:

ومتى كَانَتِ الشِّيْءُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي لَمْ تَنْزُ عَلَيْهَا الْفُحُولُ تَدْرُ لَبْنًا؟!

لَكِنَّ ضَرْعَ الشَّاةِ مَا لَبِثَ أَنْ انْتَفَخَ، وَطَفِقَ اللَّبْنُ يَنْبَثِقُ مِنْهُ ثَرًّا (5) غَزِيرًا.

فَأَخَذَ الرَّجُلُ الْآخَرَ حَجْرًا مُجَوِّفًا مِنَ الْأَرْضِ، وَمَلَأَهُ بِاللَّبَنِ، وَشَرِبَ مِنْهُ هُوَ وَصَاحِبُهُ، ثُمَّ سَقَيْبَانِي

معهما، وَأَنَا لَا أَكَادُ أَصْدُقُ مَا أَرَى.

فَلَمَّا ارْتَوَيْنَا، قَالَ الرَّجُلُ الْمُبَارَكُ لِمَنْعِ الشَّاةِ: انْقَبِضْ، فَمَا زَالَ يَنْقَبِضُ حَتَّى عَادَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ.
عِنْدَ ذَلِكَ قُلْتُ لِلرَّجُلِ الْمُبَارَكِ:
عَلَّمَنِي مِنْ هَذَا الْقَوْلِ الَّذِي قُلْتَهُ.
فَقَالَ لِي: إِنَّكَ غَلَامٌ مُعَلَّمٌ.

كَانَتْ هَذِهِ بَدَايَةَ قِصَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مَعَ الْإِسْلَامِ... إِذْ لَمْ يَكُنْ الرَّجُلُ الْمُبَارَكُ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ إِلَّا الصَّدِيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. فَقَدْ نَفَرَا (6) فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى شِعَابِ مَكَّةَ لِفِرْطٍ مَا أَرَهَقَتْهُمَا (7) قَرِيشًا وَلِشَدَّةِ مَا أَنْزَلَتْ بِهِمَا مِنْ بَلَاءٍ
وَكَأَنَّ أَحَبَّ الْغُلَامِ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ وَصَاحِبَهُ، وَتَعَلَّقَ بِهِمَا فَقَدْ أَعْجَبَ الرَّسُولُ وَصَاحِبُهُ بِالْغُلَامِ وَ
أَكْبَرَا أَمَانَتَهُ وَحَزَمَهُ وَتَوَسَّأَ فِيهِ الْخَيْرَ (8).
لَمْ يَمِضْ غَيْرُ قَلِيلٍ حَتَّى أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ لِيَخْدُمَهُ، فَوَضَعَهُ
الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي خِدْمَتِهِ.
وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ انْتَقَلَ الْغُلَامُ الْمَحْظُوظُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ مِنْ رِعَايَةِ الْغَنَمِ إِلَى خِدْمَةِ سَيِّدِ الْخَلْقِ
وَالْأُمَّمِ.

لَزِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ مُلَازِمَةً الظِّلِّ لِمُصَاحِبِهِ، فَكَانَ يُرَافِقُهُ فِي حَلِّهِ
وَتَرَحُّلِهِ، وَيُصَاحِبُهُ دَاخِلَ بَيْتِهِ وَخَارِجَهُ... إِذْ كَانَ يُوقِظُهُ إِذَا نَامَ، وَيَسْتُرُهُ إِذَا اغْتَسَلَ، وَيُلْبِسُهُ نَعْلَيْهِ إِذَا
أَرَادَ الْخُرُوجَ، وَيَخْلَعُهُمَا مِنْ قَدَمَيْهِ إِذَا هَمَّ بِالْدُخُولِ، وَيَحْمِلُ لَهُ عِصَاهُ وَسِوَاكَهُ، وَيَلْجُ الْحُجْرَةَ بَيْنَ
يَدَيْهِ إِذَا أَوَى إِلَى حُجْرَتِهِ...
بَلْ إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَدَانَ لَهُ بِالْدُخُولِ عَلَيْهِ مَتَى شَاءَ، وَالْوُقُوفَ عَلَى سِرِّهِ مِنْ غَيْرِ
تَحَرُّجٍ وَلَا تَأْتَمٍّ، حَتَّى دُعِيَ بِصَاحِبِ سِرِّ رَسُولِ اللَّهِ.

رُئِيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ، فَاهْتَدَى بِهِدْيِهِ وَتَخَلَّقَ بِشِمَائِلِهِ (9)، وَتَابَعَهُ فِي
كُلِّ خِصْلَةٍ مِنْ خِصَالِهِ حَتَّى قِيلَ عَنْهُ: إِنَّهُ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَدِيًّا وَسَمْتًا)
(10)

وَتَعَلَّمَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي مَدْرَسَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكَانَ مِنْ أَقْرَأِ الصَّحَابَةِ لِلْقُرْآنِ، وَأَفْقَهِهِمْ

لمعانيه وأعلمهم بشرع الله.

ولا أدلّ على ذلك من حكاية ذلك الرجل الذي أقبل على عمر بن الخطاب وهو واقف بعرفة، فقال له:

جئتُ- يا أمير المؤمنين- من الكوفة وتركتُ بها رجلاً يُملي المصاحفَ عن ظهر قلبه، فعُضِبَ عمرُ غضباً قلماً غضِبَ مثله، وانتفخَ حتى كادَ يَمَلأ ما بين شُعْبَتَي الرَّحْلِ (11) وقال:

مَنْ هُوَ وَيَحْكُ (12)؟!

قال: عبدُ الله بنُ مسعودٍ .

فما زالَ يَنْطَفِئُ وَيُسْرِى عَنْهُ حَتَّى عَادَ إِلَى حَالِهِ، ثم قال: وَيَحْكُ، واللّهِ ما أعلمُ أنه بقيَ أحدٌ مِنَ النَّاسِ أَحَقُّ بِهَذَا الأَمْرِ مِنْهُ، وَسَأَحَدُّثُكَ عَنْ ذَلِكَ.

واستأنفَ عمرُ كلامَهُ فقال:

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَسْمُرُ ذاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ، وَيَتَفَاوَضَانِ (13) فِي أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَكُنْتُ مَعَهُمَا، ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَرَجْنَا مَعَهُ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي بِالْمَسْجِدِ لَمْ يَتَبَّهُ (14): فَوَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْنَا وَقَالَ:

مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبًا كَمَا نَزَلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ ...

ثُمَّ جَلَسَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ يَدْعُو فَجَعَلَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ لَهُ:

سَلْ تُعْطَهُ ...

سَلْ تُعْطَهُ ...

ثم أتبعَ عمرُ يقول:

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاللّهِ لِأَعْدُونَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ لِأَبَشْرَتِهِ بِتَأْمِينِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم عَلَى دُعَائِهِ، فَغَدَوْتُ عَلَيْهِ فَبَشَّرْتُهُ، فَوَجَدْتُ أَبَا بَكْرٍ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ فَبَشَّرَهُ ...

ولا واللّهِ ما سابقتُ أبا بَكْرٍ إِلَى خَيْرٍ قَطُّ إِلَّا سَبَقَنِي إِلَيْهِ.

ولقد بلغَ من عِلْمِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ بِكِتَابِ اللَّهِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: وَاللّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا نَزَلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ نَزَلَتْ وَأَعْلَمُ فِيهَا نَزَلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ تَنَالَهُ الْمَطْيُ (15) لِأَيْتِهِ.

لم يَكُنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ مُبَالِغًا فِيمَا قَالَهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَهَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَلْقَى

رَكْبًا (16) فِي سَفَرٍ مِنْ أَسْفَارِهِ، وَاللَّيْلُ مُخَيِّمٌ يَحْجُبُ الرِّكْبَ بِظِلَامِهِ.
وَكَانَ فِي الرِّكْبِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، فَأَمَرَ عُمَرُ رَجُلًا أَنْ يُنَادِيَهُمْ:

مَنْ أَيْنَ الْقَوْمُ؟ فَأَجَابَهُ عَبْدُ اللَّهِ: مِنَ الْفَجِّ الْعَمِيقِ (17).

فَقَالَ عُمَرُ: أَيْنَ تَرِيدُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: الْبَيْتَ الْعَتِيقَ.

فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ فِيهِمْ عَالِمًا... وَأَمَرَ رَجُلًا فَنَادَاهُمْ:

أَيُّ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ؟ فَأَجَابَهُ عَبْدُ اللَّهِ: { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ }.
قَالَ:

نَادِهِمْ أَيُّ الْقُرْآنِ أَحْكَمُ؟

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: { إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى }.

فَقَالَ عُمَرُ: نَادِهِمْ أَيُّ الْقُرْآنِ أَجْمَعُ؟

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ:

{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ }.

فَقَالَ عُمَرُ: نَادِهِمْ أَيُّ الْقُرْآنِ أَخْوَفُ؟

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ:

{ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا

نَصِيرًا }.

فَقَالَ عُمَرُ:

نَادِهِمْ أَيُّ الْقُرْآنِ أَرْجَى؟

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ:

{ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا،

إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }.

فَقَالَ عُمَرُ:

نَادِهِمْ، أَفِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ!؟

قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

وَلَمْ يَكُنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ قَارِئًا عَالِمًا عَابِدًا زَاهِدًا فَحَسْبُ وَإِنَّمَا كَانَ - مَعَ ذَلِكَ - قَوِيًّا حَازِمًا

مُجَاهِدًا مَقْدَامًا إِذَا جَدَّ الْجِدُّ.

فَحَسِبُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ مُسْلِمٍ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
فقد اجتمع يوماً أصحابُ رسولِ اللهِ في مكةَ ، - وكانوا قلةً مُسْتَضْعَفِينَ -
فقالوا:

والله ما سمعتُ قريشُ هذا القرآنَ يُجهرُ لها به قطُّ، فمنَ رجلٌ يُسمِعُهُم إياه؟!
فقال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ : أنا أسمعهم إياه.
فقالوا:

إِنَّا نَخْشَاهُمْ عَلَيْكَ، إِنَّمَا نُرِيدُ رَجُلًا لَهُ عَشِيرَةٌ، تَحْمِيهِ وَتَمْنَعُهُ مِنْهُمْ إِذَا أَرَادَوه بَشَرًا، فقال: دَعُونِي
فإنَّ اللهَ سَيَمْنَعُنِي وَيَحْمِينِي...
ثم غدا إلى الْمَسْجِدِ حَتَّى أَتَى مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ فِي الضُّحَى وقريشُ جُلُوسٌ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، فَوَقَفَ عِنْدَ
المقامِ وقرأ:

{ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - رَافِعًا بِهَا صَوْتَهُ - الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ
الْبَيَانَ ... }.

وَمَضَى يَقْرَأُهَا، فَتَأَمَّلَتْهُ قَرِيشٌ وَقَالَتْ: مَاذَا قَالَ ابْنُ أُمِّ عَبْدِ؟!
تَبَّأَ لَهُ (18)... إِنَّهُ يَتْلُو بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ... وَقَامُوا إِلَيْهِ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ وَجْهَهُ وَهُوَ يَقْرَأُ
حَتَّى بَلَغَ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْلُغَ، ثُمَّ انصَرَفَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَالِدَمُّ يَسِيلُ مِنْهُ، فَقَالُوا لَهُ:
هذا الذي خَشِينَا عَلَيْكَ.

فقال:
والله ما كان أعداءُ اللهِ أهونَ في عيني منهم الآنَ، وإن شِئْتُمْ لِأَغَادِينِهِمْ (19)، بِمِثْلِهَا غَدًا، قالوا:
لا، حَسْبُكَ (20)، لقد أَسْمَعْتَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ.

عاشَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ إلى زَمَنِ خِلافةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا مَرَضَ مَرَضَ الْمَوْتِ جَاءَهُ
عُثْمَانُ عَائِدًا، فَقَالَ لَهُ:

ما تشتكى؟

قال: ذنوبي.

قال: فما تشتهي؟

قال: رحمةَ ربي.

قال: أَلَا أَمُرُّ لَكَ بِعِطَائِكَ الَّذِي امْتَنَعْتَ عَنْ أَخْذِهِ مِنْذُ سِنِينَ؟!

قال: لا حاجة لي به.
قال: يكون لبناتك من بعدك.
قال: أتخشى على بناتي الفقراً؟
إني أمرتهن أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة...
وإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول:
"مَنْ قَرَأَ الْوَاقِعَةَ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ (21) أبداً".

ولما أقبلَ الليلُ لحقَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ بالرفيقِ الأعلى ولسانه رطبٌ بذكرِ اللهِ، نديُّ بآياته البينات.

(*)

(*) للاستزادة من أخبار عبد الله بن مسعود انظر:

- 1- الإصابة (ط. السعادة): 4 / 129 - 130.
- 2- الاستيعاب (ط. حيدر آباد): 1 / 359 - 362.
- 3- أسد الغابة: 3 / 256 - 260 7 - شذرات الذهب ت 1 / 38 - 39.
- 4- تذكرة الحفاظ: 1 / 12 - 15 8 - تاريخ الإسلام الذهبي: 2 / 100 - 154.
- 5- البداية والنهاية: 7 / 162 - 163 9 - سير أعلام النبلاء: 1 / 331 - 357.
- 6- طبقات الشعراي: 29 - 30 10 1 - صفة الصفوة: 1 / 154 - 166.

الدرس التالي



رجوع

- (1) شعاب: جمع شَعْب وهو الطريق في الجبل.
- (2) لا يأبه لها: لا يهتم بها.
- (3) أخذ الجهد منهما كل مأخذ: أصابهما التعب الشديد.
- (4) ضرعها: ثديها.

- (5) نفرأ: خرجا.
- (6) ثراً: كثيراً وفيراً.
- (7) أرهقتهما: آذنتهما وأتعبتهما.
- (8) توسما فيه الخير: تفرسا فيه الخير وترتباها منه.
- (9) تخلق بشمائله: تخلق بأخلاقه واتصف بصفاته.
- (10) السميت : الهيئة والخلق.
- (11) شعبتا الرجل: مقدمته ومؤخرته.
- (12) ويحك: ويلك.
- (13) يتفاوضان: يتذكران ويتحدثان.
- (14) لم نتبينه: لم نعرفه.
- (15) تناله المطي: أي يمكن الوصول إليه.
- (16) ركباً: قافلة.
- (17) الفج العميق: الوادي العميق.
- (18) تبا له: هلاكاً له.
- (19) لأغادينهم: لأخرجنَّ لهم في صبح اليوم التالي.
- (20) حسبك: يكفيك.
- (21) الفاقة: الفقر والحاجة.

أبو عبيدة بن الجراح

" لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة "

محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

كان وَضِيءَ الوجهِ، بَهِيَّ الطَّلَعِ، نَحِيلَ الجِسْمِ، طَوِيلَ القَامَةِ، خفيفة العارِضَيْنِ: تَرْتاحُ العينُ لمرآه، وتَأَنَسُ النَّفْسُ لِلقِيَاهِ، وَيطمئنُ إليه الفؤَادُ.

وكان إلى ذلك رقيقَ الحاشيةِ، جَمَّ التَّواضُعِ (1)، شديدَ الحياءِ، لكنَّهُ كان إذا حَزَبَ الأمرُ (2) وَجَدَّ الجِدُّ يَعْدُو كأنه اللَّيْثُ عاديًا.

فهو يُشْبِهُ نَصْلَ السَّيْفِ رَوْنَقًا وَبَهَاءً، وَيُحْكِيهِ (3) حِدَّةً وَمَضَاءً.

ذَلِكَمُ هو أمينُ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ، عامرُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ الجراحِ الفهريِّ القرشيِّ، المكنى بأبي عبيدة. نَعَتَهُ عبدُ اللَّهِ بنُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عنهما فقال: ثلاثة من قريش أصبح النَّاسُ وجوهاً، وأحسَنُها أخلاقاً، وأثبَتُها حياءً إن حَدَّثْتُوكَ لَمْ يَكْذُبُوكَ (4)، وإن حَدَّثْتَهُمْ لَمْ يَكْذُبُوكَ: أبو بكرُ الصِّدِّيقُ، وَعُثْمَانُ بنُ عَفَّانٍ وَأبو عبيدة بنُ الجراح.

كان أبو عبيدة من السَّابِقِينَ الأوَّلِينَ إلى الإسلامِ، فقد أسلمَ في اليومِ التَّالِي لِإِسْلَامِ أبي بكرٍ، وكان إسلامُهُ على يَدَيِ الصِّدِّيقِ نَفْسِهِ، فَمَضَى بِهِ وَبَعَدَ الرَّحْمَنِ ابنِ عَوْفٍ (5) وبعثمان بن مَظْعُونٍ وبالأرقمِ بنِ أبي الأرقمِ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأعلَنُوا بينَ يَدَيْهِ كَلِمَةَ الحَقِّ، فكانوا القواعدِ الأولى التي أقيمَ عليها صرْحُ الإسلامِ العظيمِ.

عاش أبو عبيدة تَجْرِبَةً المُسلمِينَ القاسِيَةَ في مَكَّةَ مُنْذُ بَدَايَتِهَا إلى نِهَايَتِهَا، وعانى مع المُسلمِينَ السَّابِقِينَ من عُنْفِهَا وَضَرَاوَتِهَا وآلامِهَا وَأحْزَانِهَا ما لم يُعَانِهِ أَتْبَاعُ دِينِ عَلِيٍّ ظَهَرَ الأَرْضِ، فَثَبَّتَ لِلأَبْتِلاءِ (6)، وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ في كلِّ مَوْقِفٍ. لَكِنَّ مِحْنَةَ أَبِي عبيدةَ يَوْمَ بَدْرٍ فَاقَّتْ في عُنْفِهَا حِسبانَ الحاسِبِينَ وَتجاوَزَتْ حِيالَ المُتَخَيِّلِينَ.

انطلق أبو عبيدة يوم بدر يصول بين الصُفوفِ صَوْلَةً مَنْ لَا يَهَابُ الرَّدَى، فَهَابَهُ الْمُشْرِكُونَ، وَيَجُولُ جَوْلَةً مَنْ لَا يَحْذِرُ الْمَوْتَ، فَحَذِرَهُ فُرْسَانُ قَرِيشٍ وَجَعَلُوا يَتَنَحَّوْنَ عَنْهُ كُلَّمَا وَاجَهُوهُ...
لَكِنَّ رَجُلًا وَاحِدًا مِنْهُمْ جَعَلَ يَبْرُزُ لِأَبِي عُبَيْدَةَ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَتَحَرَّفُ (7) عَنْ طَرِيقِهِ وَيَتَحَاشَى لِقَاءَهُ (8).

وَلَجَّ الرَّجُلُ فِي الْمَهْجَمِ، وَأَكْثَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ مِنَ التَّنْحِيِ وَسَدَّ الرَّجُلُ عَلَى أَبِي عُبَيْدَةَ الْمَسَالِكَ، وَوَقَفَ حَافِلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ قِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ. فَلَمَّا ضَاقَ بِهِ ذَرَعًا (9) ضَرَبَ رَأْسَهُ بِالسَّيْفِ ضَرْبَةً فَلَقَّتْ هَامَتَهُ فَلَقَّتَيْنِ، فَخَرَّ الرَّجُلُ صَرِيعًا بَيْنَ يَدَيْهِ.

لا تحاول - أيها القارئ الكريم - أن تُخَمِّنَ مَنْ يَكُونُ الرَّجُلُ الصَّرِيْعُ ..
أَمَا قُلْتَ لَكَ: إِنَّ عُنْفَ التَّجْرِبَةِ فَاقَ حِسَابَ الْحَاسِبِينَ وَجَاوَزَ خِيَالَ الْمُتَخَيِّلِينَ؟
وَلَقَدْ يَتَصَدَّعُ رَأْسُكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الرَّجُلَ الصَّرِيْعَ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الْجِرَّاحِ وَالِدِ أَبِي عُبَيْدَةَ.

لم يقتل أبو عبيدة أباه، وإنما قتل الشرك في شخص أبيه.
فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي شَأْنِ أَبِي عُبَيْدَةَ وَشَأْنِ أَبِيهِ قِرْآنًا فَقَالَ - عَلَتْ كَلِمَتُهُ -: { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ، أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (10).

لم يكن ذلك عجيباً من أبي عبيدة، فقد بلغ من قوة إيمانه بالله ووضوحه لدينه، والأمانة على أمة محمد مبلغاً طمحت إليه نفوس كبيرة عند الله.

حَدَّثَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ: قَدِمَ وَفَدَّ مِنَ النَّصَارَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ أِبْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ تَرْضَاهُ لَنَا لِيَحْكُمَ بَيْنَنَا فِي أَشْيَاءَ مِنْ أَمْوَالِنَا اخْتَلَفْنَا فِيهَا، فَإِنَّكُمْ عِنْدَنَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَرْضِيُونَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اتَّوْبِي الْعَشِيَّةَ أِبْعَثْ مَعَكُمْ الْقَوِيَّ الْأَمِينَ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَرَحْتُ إِلَى صَلَاةِ الظُّهْرِ مُبَكَّرًا وَإِنِّي مَا أَحْبَبْتُ الْإِمَارَةَ حُبِّي إِيَّاهَا يَوْمَئِذٍ رَجَاءً أَنْ أَكُونَ صَاحِبَ هَذَا النَّعْتِ...

فَلَمَّا صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظُّهْرَ، جَعَلَ يَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، فَجَعَلَتْ أَتْطَاوُلُ لَهُ لِيَرَانِي، فَلَمْ يَزَلْ يُقَلِّبُ بَصَرَهُ فِينَا حَتَّى رَأَى أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجِرَّاحِ، فَدَعَاهُ فَقَالَ:

أَخْرَجَ مَعَهُمْ فَأَقْضَى بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ فَقُلْتُ: ذَهَبَ بِهَا أَبُو عُبَيْدَةَ.

وَلَمْ يَكُنْ أَبُو عُبَيْدَةَ أَمِينًا فَحَسَبُ، وَإِنَّمَا كَانَ يَجْمَعُ الْقُوَّةَ إِلَى الْأَمَانَةِ، وَقَدْ بَرَزَتْ هَذِهِ الْقُوَّةُ فِي أَكْثَرِ
مِنْ مَوْطِنٍ:

بَرَزَتْ يَوْمَ بَعَثَ الرَّسُولُ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ لِيَتَلَقَّوْا عَيْرًا (11) لِقَرِيشٍ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمْ وَعَنْهُ، وَزَوَّدَهُمْ جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ، لَمْ يَجِدْ لَهُمْ غَيْرَهُ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَعْطِي الرَّجُلَ مِنْ أَصْحَابِهِ
كُلَّ يَوْمٍ تَمْرَةً، فَيَمَصُّهَا الْوَاحِدُ مِنْهُمْ؟ كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ ضَرْعَ أُمِّهِ، ثُمَّ يَشْرَبُ عَلَيْهَا مَاءً، فَكَانَتْ تَكْفِيهِ
يَوْمَهُ إِلَى اللَّيْلِ.

وَفِي يَوْمٍ أَحَدِ حِينَ هَزَمَ الْمُسْلِمُونَ وَطَفِقَ صَائِحُ الْمَشْرِكِينَ يُنَادِي:
ذُلُّونِي عَلَى مُحَمَّدٍ... ذُلُّونِي عَلَى مُحَمَّدٍ... كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَحَدَ التَّفَرِّعِ الْعَشْرَةِ الَّذِينَ أَحَاطُوا بِالرَّسُولِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَذُودُوا عَنْهُ (12) بِصُدُورِهِمْ رِمَاحَ الْمَشْرِكِينَ.
فَلَمَّا انْتَهَتْ الْمَعْرَكَةُ كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ كَسِرَتْ رَبَاعِيَّتَهُ (13) وَشَجَّ حَبِينَهُ
وَوَارَتْ فِي وَجْتِهِ حَلَقَتَانِ مِنْ حَلَقِ دِرْعِهِ فَأَقْبَلُ عَلَيْهِ الصَّدِيقُ يُرِيدُ انْتِزَاعَهُمَا مِنْ وَجْتِهِ فَقَالَ لَهُ أَبُو
عُبَيْدَةَ: أَقْسِمُ عَلَيْكَ أَنْ تَتْرُكَ ذَلِكَ لِي، فَتَرَكَهُ، فَخَشِيَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَنْ أَقْتَلَهُمَا بِيَدِهِ أَنْ يُؤْلِمَ رَسُولَ اللَّهِ،
فَعَضَّ عَلَى أَوْلَاهُمَا بِثَنِيَّتِهِ (14) عَضًّا قَوِيًّا مُحْكَمًا فَاسْتَخْرَجَهَا وَوَقَعَتْ ثَنِيَّتُهُ... ثُمَّ عَضَّ عَلَى الْأُخْرَى
بِثَنِيَّتِهِ الثَّانِيَةَ فَاقْتَلَعَهَا فَسَقَطَتْ ثَنِيَّتُهُ الثَّانِيَةَ.

قال أبو بكر: "فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتماً (15)"

لَقَدْ شَهِدَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا مُنْذُ صَبَحَهُ إِلَى أَنْ وَاوَاهُ الْيَقِينُ)

(16)

فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ (17)، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي عُبَيْدَةَ:
ابْسُطْ يَدَكَ أَبَايَعُكَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:
إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَنْتَ أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ. فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:
مَا كُنْتُ لِأَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ رَجُلٍ أَمْرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُؤْمَنَّا فِي الصَّلَاةِ فَأَمَّنَّا حَتَّى
مَاتَ.

ثم بويع بعد ذلك لأبي بكر الصديق، فكان أبو عبيدة خير نصيح له في الحق، وأكرم معوان له على

الخير.

ثم عهد أبو بكر بالخلافة من بعده إلى الفاروق فدان له أبو عبيدة بالطاعة، ولم يعصه في أمر، إلا مرة واحدة.

فهل تدري ما الأمر الذي عصى فيه أبو عبيدة أمر خليفة المسلمين؟!!

لقد وقع ذلك حين كان أبو عبيدة بن الجراح في بلاد الشام يقود جيوش المسلمين من نصر إلى نصر حتى فتح الله على يديه الديار الشاميه كلها... فبلغ الفرات شرقاً واسبيا الصغرى شمالاً.

عند ذلك ذهب بلاد الشام طاعون ما عرف الناس مثله قط فجعل يحصد الناس حصداً...

فما كان من عمر بن الخطاب إلا أن وجه رسولا إلى أبي عبيدة برسالة يقول فيها:

إني بدت (18) لي إليك حاجة لا غني لي عنك فيها، فإن أتاك كتابي ليلاً فإني أعزم عليك (19) ألا تصبح حتى تركب إلي، وإن أتاك نهاراً فإني أعزم عليك ألا تمسي حتى تركب إلي.

فلما أخذ أبو عبيدة كتاب الفاروق قال:

قد علمت حاجة أمير المؤمنين إلي، فهو يريد أن يستبقي من ليس بباقي، ثم كتب إليه يقول:

يا أمير المؤمنين، إني قد عرفت حاجتك إلي، إني في جند من المسلمين ولا أجد بنفسي رغبة عن

الذي يصيبهم (20)...

ولا أريد فراقهم حتى يقضي الله في وفيهم أمره...

فإذا أتاك كتابي هذا فحللني من عزمك، واثذن لي بالبقاء.

فلما قرأ عمر الكتاب بكى حتى فاضت عيناه، فقال له من عنده - لشدته ما رأوه من بكائه -: أمت

أبو عبيدة يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، ولكن الموت منه قريب.

ولم يكذب ظن الفاروق، إذ ما لبث أبو عبيدة أن أصيب بالطاعون، فلما حضرته الوفاة أوصى

جنده فقال:

إني موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير :

أقيموا الصلاة، وصوموا شهر رمضان، وتصدقوا، وحجوا واعتمروا، وتواصوا، وانصحو

لأمرائكم ولا تعشوهم ولا تلهكم الدنيا، فإن المرء لو عمر ألف حول ما كان له بد من أن يصير إلى

مصرعي هذا الذي ترون... والسلام عليكم ورحمة الله.

ثم التفت إلى معاذ بن جبل (21) وقال: يا معاذ، صل (22) بالناس.

ثم ما لبث أن فاضت روحه الطاهرة، فقام معاذ وقال:

أيها الناس: إنكم قد فجعتم برجل - والله - ما أعلم أني رأيت رجلاً أبر صدراً، ولا أبعد غائلة)

23) ولا أَشَدَّ حُبًّا لِلْعَاقِبَةِ وَلَا أَنْصَحَ لِلْعَامَّةِ مِنْهُ، فَتَرَحَّمُوا عَلَيْهِ يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ (*).

(* للاستزادة من أخبار أبي عبيدة بن الجراح انظر:

1- طبقات ابن سعد (انظر الفهارس).

2- الإصابة الترجمة: 4400.

3- الاستيعاب: 2/3 (طبقة السعادة).

4- حلية الأولياء: 1/100.

5- البدء والتاريخ: 87/5.

6- ابن عساكر: 157/7.

7- صفة الصفوة: 1/142.

8- أشهر مشاهير الإسلام: 4، 5.

9- تاريخ الخميس: 2/244.

10- الرياض النضرة: 307.

الدرس التالي



رجوع

(1) جم التواضع: كثير التواضع.

(2) حزب الأمر: اشتد الأمر.

(3) يحكيه: يماثله.

(4) لم يكذبوك: لم يكذبوا عليك.

(5) انظر سرته ص 261.

(6) الابتلاء: الاختبار.

(7) يتحرف عن طريقه: يتنحى عن طريقه.

(8) يتحاشى لقاء: يتجنب لقاءه ويتوقاه.

- (9) ضاق به ذرعاً: لم يستطع الصبر عليه.
- (10) سورة المجادلة: الآية رقم (22)
- (11) عيراً: قافلةً.
- (12) ليدودوا عنه: ليدفعوا عنه.
- (13) الرباعية: السن إلى بين الثنية والناب.
- (14) الثنية: وجمعها ثنايا وهي أسنان مقدم الفم.
- (15) الأهتم: من انكسرت ثنيتاه.
- (16) وافاه اليقين: جاءه الموت.
- (17) يوم السقيفة: المراد به يوم بيعة أبي بكر رضى الله عنه، فقد تمت بيعته في سقيفة بني ساعدة.
- (18) بدت: ظهرت.
- (19) أعزم عليك: أطلب منك بالبحاح وقوة، وأقسم عليك.
- (20) لا أجد بنفسى رغبة عن الذي يصيبهم: أي لا أرغب في أن أ حفظ نفسي مما يصيبهم.
- (21) انظر سيرته ص 529.
- (22) صلّ بالناس: كن إماماً لهم.
- (23) الغائلة: وجمعها الغوائل وهي الشر والحقد الباطن.

أُمُّ الْعَرَبِ

أم سلمة

أُمُّ سَلَمَةَ، وَمَا أَذْرَاكَ مَا أُمُّ سَلَمَةَ؟!!

أما أبوها فسيّدٌ من ساداتِ مَخْزُومِ المَرْمُوقِينَ، وجوادٌ من أجوادِ العَرَبِ المَعْدُودِينَ؛ حتّى إنه كان يقال له: "زاد الرّاكِبِ"؛ لأنَّ الرُّكبانَ كانتْ لا تَتَزَوَّدُ إذا قَصَدَتْ مَنازِلَهُ أو سارتْ في صُحْبَتِهِ. وأمّا زوجها فعبُدُ اللهِ بنُ عبدِ الأَسَدِ أَحَدُ العَشْرَةِ السابِقِينَ إلى الإسلامِ، إذْ لم يسلم قَبْلَهُ إلاّ أبو بكرٍ الصديقُ ونفراً قليلٌ لا يَبْلُغُ أصابعَ اليدين عدداً. وأمّا اسمُها فهنْدُ؛ لكنّها كُنيتْ بأُمِّ سَلَمَةَ، ثم غَلَبَتْ عليها الكُنْيَةُ.

أسلمت أم سلمة مع زوجها فكانت هي الأخرى من السابقات إلى الإسلام أيضاً. وما إن شاع نَبأُ إسلامِ أم سلمة وزوجها حتّى هاجت قريش وماجت، وجعلت تُصَبُّ عليهما من نكالها (1) ما يُزَلِّلُ الصُّمَّ الصُّلابَ (2)، فلم يضعفا ولم يهنا ولم يترددا. ولما اشتد عليهما الأذى وأذن الرسول صلوات الله عليه لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة كانا في طليعة المهاجرين.

مَضَتْ أُمُّ سَلَمَةَ وزوجها إلى ديارِ العُرْبَةِ وخَلَفَتْ وراءها في مَكَّةَ بيتها الباذخ (3)، وعزّها الشامخ، ونسبها العريق، مُحْتَسِبَةً (4) ذلك كله عند الله، مُسْتَقِلَّةً له في جَنبِ مَرْضَاتِهِ. وعلى الرَّغْمِ ممّا لَقِيَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ وصحبها من حِمَايَةِ النجاشيِّ نَصَرَ اللهُ في الجَنَةِ وَجْهَهُ، فقد كان الشُّوقُ إلى مَكَّةَ مَهبطِ الوحي، والحنينُ إلى رسولِ اللهِ مَصْدَرِ الهُدَى يَفْرِي كَبِدَهَا وَكَبَدَ زوجها فَرِيًّا. ثم تَتَابَعَتِ الأَخْبَارُ على المهاجرين إلى أرضِ الحَبَشَةِ بأنَّ المسلمين في مَكَّةَ قد كَثُرَ عَدَدُهُمْ، وأنَّ إسلامَ حَمْرَةَ بنِ عبدِ المَطْبِ، وعمرَ بنِ الخَطَّابِ قد شَدَّ من أزرهم (5)، وكَفَّ شَيْئاً من أذى قريش عنهم، فَعَزَمَ فريقٌ منهم على العودَةِ إلى مَكَّةَ، يَحْدُوهُمْ الشوقُ (6)، ويدعوهم الحنينُ..

فكانت أم سلمة وزوجها في طليعة العائدين

لكن سرعان ما اكتشف العائدون أن ما نُمي إليهم من أخبار كان مُبالغاً فيه، وأن الوُتْبَةَ التي وُتِبَها المسلمون بعدَ إسلامِ حمزةَ وعمرَ، قد قوبلت من قريش بهجمةٍ أكبر.

فافتنَّ المشركون في تعذيب المسلمين وترويعهم، وأذاقوهم من بأسهم ما لا عهد لهم به من قبل. عند ذلك أذن الرسول صلواتُ الله عليه لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، فعزمت أم سلمة وزوجها علي أن يكونا أول المهاجرين فراراً بدينهما وتخلصاً من أذى قريش. لكن هجرة أم سلمة وزوجها لم تكن سهلةً ميسرةً كما خيل لهما، وإنما كانت شاقّةً مرّةً خلفت وراءها مأساةً تهون دونها كل مأساة. فلنترك الكلامَ لأم سلمة لتروي لنا قصة مأساتها... فشعورها بما أشد وأعمق، وتصويرها لها أدق وأبلغ. قالت أم سلمة:

لما عزم أبو سلمة على الخروج إلى المدينة أعد لي بغيراً، ثم حملني عليه، وجعل طفلاً سلمة في حجرِي، ومضى يقود بنا البعير وهو لا يلوي على شيء (7). وقبل أن نفضل (8) عن مكة رأنا رجال من قومي بني مخزوم فتصدّوا لنا، وقالوا لأبي سلمة:

إن كنت قد غلبتنا على نفسك، فما بال امرأتك هذه؟!!

وهي بنتنا، فعلام نتركك تأخذها منا وتسير بها في البلاد؟!!

ثم وثبوا عليه، وانتزعوني منه انتزاعاً.

وما إن رآهم قوم زوجي بنو عبد الأسد يأخذونني أنا وطفلي، حتى غضبوا أشد الغضب، وقالوا:

لا والله لا تترك الولد عند صاحبتيكم بعد أن انتزعتموها من صاحبنا انتزاعاً..

فهو ابننا ونحن أولى به.

ثم طفقوا يتجادبون طفلي سلمة بينهم على مشهد مني حتى خلعوا يده وأخذوه.

وفي لحظات وجدت نفسي ممزقة الشمل وحيدة فريدة:

فزوجي أتجه إلى المدينة فراراً بدينه ونفسه... وولدي اختطفه بنو عبد الأسد من بين يدي محطماً

مهيضاً (9)..

أما أنا فقد استولى علي قومي بنو مخزوم، وجعلوني عندهم...

ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني في ساعة.

ومنذ ذلك اليوم جعلت أخرج كل غداة إلى الأبطح، فأجلس في المكان الذي شهد مأساتي،

وأستعيد صورة اللحظات التي حيل فيها بيني وبين ولدي وزوجي، وأظل أبكي حتى يُخيم علي الليل.

وبقيتُ على ذلك سنةً أو قريباً من سنةٍ إلى أن مرَّ بي رجلٌ من بني عمِّي، فرَّقَ لحالي ورحماني وقال لبني قومي:

ألا تُطلِقون هذه المسكينة!! فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها.

وما زال بهم يستلينُ قلوبهم ويستدرُّ عطفهم حتى قالوا لي:

الحقي بزوجك إن شئت.

ولكن كيف لي أن ألحق بزوجي في المدينة وأترك ولدي وفلذة (10) كبدي في مكة عند بني عبد الأسد؟!

كيف يمكن أن تهذا لي لوعة أو ترفأ لعيني عبرة (11) وأنا في دار الهجرة وولدي الصغير في مكة لا أعرف عنه شيئاً!!!

ورأى بعضُ الناس ما أعالج (12) من أحزاني وأشجاني فرقت قلوبهم لحالي، وكلموا بني عبد الأسد في شأني (13) واستعطفوهم على فردوا لي ولدي سلمة.

لم أشأ أن أتريث في مكة حتى أجد من أسافر معه ؛ فقد كنت أخشى أن يحدث ما ليس بالحسبان فيعوقني عن اللحاق بزوجي عائقٌ ...

لذلك بادرت فأعددتُ بعيري، ووضعتُ ولدي في حجري، وخرجتُ متوجهةً نحو المدينة أريدُ زوجي، وما معي أحدٌ من خلقِ الله.

وما إن بلغتُ "التنعيم" (14) حتى لقيتُ عثمان بن طلحة (15) فقال:

إلى أين يا بنتَ زادِ الراكبِ؟!

فقلت: أريدُ زوجي في المدينة.

قال: أو ما معك أحدٌ؟!

قلت: لا والله إلا الله ثم بُنيُّ هذا.

قال: والله لا أتركك أبداً حتى تبُلغي المدينة. ثم أخذَ بخطام (16) بعيري وانطلقَ يهوي بي ..

فوالله ما صحبتُ رجلاً من العرب قطُّ أكرمَ منه ولا أشرفَ: كان إذا بلغَ منزلاً من المنازل يُنحِ بِعيري، ثم يستأخرُ عني، حتى إذا نزلتُ عن ظهره واستويتُ على الأرضِ دنا إليه وحطَّ عنه رَحله، واقتاده إلى شجرةٍ وقَّده فيها...

ثم يتنحَّى عني إلى شجرةٍ أخرى فيضطجعُ في ظلِّها.

فإذا حان الرواحُ قامَ إلى بعيري فأعدَّه، وقدمه إليّ، ثم يستأخرُ عني ويقول: اركبي، فإذا ركبتُ،

وَاسْتَوَيْتُ عَلَى الْبَعِيرِ، أَتَى فَأَخَذَ بِخِطَامِهِ وَقَادَهُ.

وما زال يصنع بي مثل ذلك كل يوم حتى بلغنا المدينة، فلما نظر إلى قرية بقباء (17) لبني عمرو بن عوف قال: زوجك في هذه القرية، فادخلها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

اجتمع الشمل الشتيت (18) بعد طول افتراق، وقرت عين أم سلمة بزوجهها، وسعد أبو سلمة بصاحبه وولده... ثم طفت الأحداث تضي سراعاً كلمح البصر. فهذه بدر يشهد لها أبو سلمة ويعود منها مع المسلمين، وقد انتصروا نصراً مؤزرًا (19). وهذه أحد، يخوض غمارها بعد بدر، ويولي فيها أحسن البلاء وأكرمته، لكنه يخرج منها وقد جرح جرحاً بليغاً، فما زال يعالجه حتى بدا له أنه قد اندمل (20)، لكن الجرح كان قد رُم على فساد (21) فما لبث أن ائتكا (22) وألزم أبا سلمة الفراش. وفيما كان أبو سلمة يعالج من جرحه قال لزوجته: يا أم سلمة، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

"لا يصيب أحداً مصيبة، فيسترجع (23) عند ذلك ويقول:

اللهم عندك احتسبت مصيبي هذه.

اللهم اخلفني خيراً منها إلا أعطاه الله عز وجل...."

ظل أبو سلمة على فراش مرضه أياماً. وفي ذات صباح جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعوده، فلم يكذ ينتهي من زيارته ويجاوز باب داره، حتى فارق أبو سلمة الحياة. فأغمض النبي عليه الصلاة والسلام يديه الشريفتين عيني صاحبه. ورفع طرفه إلى السماء وقال:
اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المقربين.
واخلفه في عقبه (24) في الغابرين.
واغفر لنا وله يا رب العالمين. وافسح له في قبره، ونور له فيه.
أما أم سلمة فتذكرت ما رواه لها أبو سلمة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت:
اللهم عندك احتسبت مصيبي هذه...

لكنها لم تطب نفسها أن تقول: اللهم اخلفني (25) فيها خيراً منها؟ لأنها كانت تتساءل، و من

عَسَاهُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْ أَبِي سَلْمَةَ؟!
لَكِنَّهَا مَا لَبِثَتْ أَنْ أَمَّتِ الدَّعَاءَ...

حزن المسلمون لمصاب أم سلمة؟ لم يحزنوا لمصاب أحد من قبل، وأطلقوا عليها اسم "أيم" (26) العرب "....

إذ لم يكن لها في المدينة أحد من ذويها غير صبيّة صغار كزغب القطا (27).

شعر المهاجرون والأنصار معاً بحق أم سلمة عليهم، فما كادت تنتهي من حدادها على أبي سلمة حتى تقدّم منها أبو بكر الصديق يخطبها لنفسه فأبت أن تستجيب لطلبه..
ثم تقدّم منها عمر بن الخطاب فردته كما ردت صاحبه...
ثم تقدّم منها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له:
يا رسول الله، إن فيّ خللاً (28) ثلاثاً: فأنا امرأة شديدة الغيرة فأخاف أن ترى مني شيئاً يُعْضِبُكَ فيُعَذِّبني الله به.

وأنا امرأة قد دخلت في السن (29).

وأنا امرأة ذات عيال.

فقال عليه الصلاة والسلام:

أما ما ذكرت من غيرتك فيني أدعو الله عز وجل أن يذهبها عنك.

وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك. وأما ما ذكرت من العيال، فإئتما عيالك عيالي.

ثم تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من أم سلمة فاستجاب الله دعائها، وأخلفها خيراً من أبي سلمة.

ومنذ ذلك اليوم لم تبق هند المخزومية أمّاً لسلمة وحده؟ وإنما غدت أمّاً لجميع المؤمنين.

نصر الله وجه أم سلمة في الجنة ورضي عنها وأرضاها (*)

(*) للاستزادة من أخبار أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها انظر:

- 1- الإصابة (طبعة السعادة) 240 - 242.
- 2- الاستيعاب (طبعة حيدر آباد) 2 / 780.
- 3- أسد الغابة: 588/5 - 589.
- 4- تهذيب التهذيب : 455/12 - 465 .
- 5- تقريب التهذيب : 627/2 .
- 6- صفة الصفوة : 20/2 - 21 .
- 7- شذرات الذهب : 69/1 - 70 .
- 8- تاريخ الإسلام للذهبي : 97/3 - 98 .
- 9- البداية والنهاية : 214/8 - 215 .
- 10- الأعلام ومراجعته : 104/9 .



رجوع

- (1) النكال: الأذى الشديد الذي يجعل المصاب به عبرة لغيره.
- (2) الصم الصلاب: الصخور القاسية.
- (3) الباذخ: العالي، الرفيع.
- (4) محتسبة: طالبة الجزاء من الله.
- (5) شد أزهرهم: قواهم.
- (6) يحدوهم الشوق: يسوقهم الشوق.
- (7) لا يلوي على شيء: لا يقف عند شيء ولا ينتظر.
- (8) قبل أن نفصل عن مكة: قبل أن نخرج منها.
- (9) مهيضاً: ممزقاً مكسراً.
- (10) فلذة كبدي: قطعة كبدي.
- (11) ترفأ لعيني عبرة: تجف لعيني دمعة.
- (12) أعالج: أعاني.
- (13) في شأني: في أمري.
- (14) التنعيم: مكان على ثلاثة أميال من مكة.
- (15) عثمان بن طلحة: كان حاجب بيت الله في الجاهلية، أسلم مع خالد بن الوليد وشهد فتح مكة فدفع إليه الرسول عليه السلام مفتاح

الكعبة وكان يوم رافقَ أم سلمة مشركاً.

(16) الحِطام: حَبْلٌ يجعل في عنق البعير ليقاد به.

(17) قُبَاء: قرية في ضواحي المدينة تبعد عنها ميلين.

(18) الشَّتَيْت: المُفْرَق.

(19) مؤزراً: قوياً ميبناً.

(20) اندمل: تماثل للشفاء.

(21) رم الجرح على فساد: يعني صلح في الظاهر وهو فاسد في الحقيقة.

(22) انتكأ: انفتح.

(23) يسترجع: يقول إنا لله وإنا إليه راجعون.

(24) اخلفه في عقبه: كن عوضاً عنه ولأولاده وأهله.

(25) أخلفني فيها خيراً منها: عوضني عنها ما هو خير منها.

(26) الأيمُّ: المرأة التي فقدت زوجها.

(27) كَرِغِبِ القِطَا: كفراخ القِطَا التي لم ينبت ريشها.

(28) خِلالاً: صفات .

(29) دخلت في السن: جاوزت سنَّ الزَّوْج.